مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Études sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الأول

2024

التاريخ والديناميات الاجتماعية
متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي
تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع
الجزء الأول
2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Études sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

MARRAKECH
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

Histoire et dynamiques sociales

Mélanges en l'honneur du professeur Hassan HAFIDI ALAOUI

Coordination :
Mohamed RABITATEDDINE et Mohamed ELAKLAA

Tome 1

2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Études sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الأول

2024

التاريخ والديناميات الاجتماعية
متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي
تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع
الجزء الأول
2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Études sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

MARRAKECH
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

Histoire et dynamiques sociales

Mélanges en l'honneur du professeur Hassan HAFIDI ALAOUI

Coordination :
Mohamed RABITATEDDINE et Mohamed ELAKLAA

Tome 1

2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources,
Mobilité et Attractivité - **LERMA**

MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵜ ⵏ ⵜⵓⵔⵣⵉ ⴷ ⵜⵙⴰⵡⴰⵍⵉⵏ ⵜⵉⵏⵙⵓⵖⵉⵏ - ⵎⵕⵕⴰⴽⵛ
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الأول

2024

محفوظة جميع الحقوق
©Copyright

الـتـاريـخ والـديناميات الاجتماعيـة

متنوعـات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علـوي

تنسيـــــــــق :محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

مـنـشـــــورات : مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية (LERMA)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة القاضي عياض، مراكش.

الإيداع القانوني : 2024MO0741

ردمـــــــــــك : 978-9920-8894-0-7

الطبـعـة الأولى : 2024

الطباعة والإخراج الفني : دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط

دار أبي رقراق للطباعة والنشر
10 شارع العلويين رقم *3*، حسان – الرباط
الهاتف : *83 75 20 37 05* - الفاكس : *89 75 20 37 05*
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com

ولـد حـسـن حـافـظي علـوي بزاوية أوفوس بإقليم الرشيدية في 24 رجب 1381 هـ/01 يناير 1962م، وتابع دراسته الثانوية بثانوية غريس بگلميمة، ثم التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس حيث ناقش دبلوم الدراسات العليا سنة 1989. وفي سنة 2005 حصل على دكتوراه الدولة من جامعة محمد الخامس بالرباط. وتتمحور أبحاثه حول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بالعالم الإسلامي في « العصر الوسيط »، وتاريخ الأفكار والتقنيات وتاريخ المؤسسات السياسية والاجتماعية.

الفهـــــرس

كلمة السيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية 9

كلمة السيد رئيس مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية (LERMA)..... 11

تقديم عام..... 13
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

التعريف بالأستاذ حسن حافظي علوي: مسار باحث حصيف..... 23
البيضاوية بلكامل

الفاعل المسؤول: قراءة في بعض أعمال مجموعة البحث في تاريخ المجال والإنسان بتانسيفت..... 33
محمد الأكلع

المحور الأول: إسهام الأستاذ حسن حافظي علوي في الدراسات الصحراوية

المقاربة المصدرية عند الأستاذ حسن حافظي علوي تجليات الامتداد ومسارات الإمداد... 51
محمد البركة

إعمال التعريفات لتجلية الفروق بين الصحراء والواحات: إسهام في دراسة حيوية المجال المعاشي بالمغرب الوسيط 83
سعيد بنحمادة

فقه البادية والتاريخ في مؤلفات الأستاذ حسن حافظي علوي..... 121
أحمد الصديقي

المحور الثاني: التاريخ والرواية

ما بين الرواية التاريخية والتاريخ من اتصال وانفصال 133
حسن أوريد

المحور الثالث: مصادر جديدة

نصوص تاريخية يمنية عن سلاطين الدولة العلوية مقتبسة من كتاب درر نحور الحور العين بسيرة المنصور علي وأعلام دولته الميامين للطف الله جحاف الصنعاني (ت 1243هـ/1827م)..... 141
عبد السلام محمد أحمد الصباري

أنظار في اختصار كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي 181
الوافي نوحي

المحور الرابع: المذاهب الإسلامية في فجر الإسلام

العبد والمولى في حركات الشيعة من الظهور إلى حركة المختار (38-67هـ/658-687م..... 195
عبد الحميد الفهري
المخاض المذهبي بالمغرب الإسلامي إبان عصري الولاة المشارقة والإمارات المحلية المستقلة..... 213
عبد الهادي البياض

المحور الخامس : نظرات في التاريخ المرابطي

أثر الحضارة الأندلسية في حضارة الغرب المسيحي زمن المرابطين 269
فائزة البوكيلي
الدولة المرابطية المشروع الوحدوي والسياسة الفكرية: مراجعات نقدية 281
أحمد الخاطب

المحور السادس: التصوف والقيم الإنسانية

التصوّف والمجتمع بإفريقيّة والمغرب بين القرنين السّادس والتّاسع للهجرة/الثّانـي عشر والخامس عشر للميلاد 331
محمد حسن
الصلات الصوفية والعلمية بين الزاويتين العياشية والقشاشية : التصوف الحاتمي والفلسفي وغريب المسائل..... 359
عبـد الله نجـمـي
في تاريخية مفهوم الكرامة..... 411
محمد موهوب

المحور السابع: التاريخ وصناعة الذاكرة

تقديس الشخص في الثقافة التركية: من جينكزخان إلى أردوغان 439
عبد الرحيم بنحادة
الثمثلات الخمسة لشخصية الأمير عبد القادر أو تاريخ جينيالوجيا البطولة والرمز 469
الجيلالي العدناني

تقديس الشخص في الثقافة التركية
من جينكزخان إلى أردوغان

عبد الرحيم بنحادة[*]

تنبني هذه الورقة على ما انتهيت إليه من خلاصات في كتابي الموسوم بـ: **إستوغرافيات تركية في كتابة الأتراك لتاريخ الدولة العثمانية**. كما تنطلق من تأمل في حاضر تركيا التي بات رئيسها طيب رجب إردوغان يملأ الدنيا ويشغل الناس على المستوى المحلي والإقليمي والدولي باعتباره «ظاهرة سياسية متفردة.» ومن ثمة، فالورقة تسعى إلى الإجابة على الأسئلة التالية: كيف يبني الشخص الرمز هالته وقدسيته؟ وكيف يجري استحضار هذا الرمز في لحظة تاريخية بعينها؟ وما هي السياقات التي تتحكم في استحضار رمز دون آخر؟ أو بصيغة أخرى كيف يجري استبدال الرموز بأخرى؟

تجمع الصحافة التركية والغربية على تقديم رجب طيب إردوغان كرمز لتركيا المعاصرة، ويستوحي الإعلام المحلي والدولي هذا التوجه من الخطب التي يلقيها إردوغان في محافل مختلفة تتراوح بين التظاهرات الثقافية والسياسية إن على المستوى المحلي أو على المستوى الدولي، وكذا من سلوكيات الرئيس التركي. ويعزف الزعيم التركي في ذلك على وتر الشعبوية. ومع توالي السنين أصبح الأتراك يعتقدون أن رجب الطيب إردوغان ليس بالشخص العادي. فعندما خرج منتصرا في الاستفتاء الذي أجري يوم 16 من أبريل2017، بادرت الصحافة التركية الموالية له إلى الإعلان عن «موت تركيا القديمة وتشييع جثمانها في 17 أبريل في ضريح مؤسسها كمال أتاتورك.»[1] هذا السلوك لم يكن جديدا بالنسبة للأتراك، بل تعودوا عليه عبر الأزمنة، إذ في كل مرة كان يعوض بطل ببطل منذ القرن التاسع عشر عندما أصبح التاريخ يوظف سياسيا. وسوف نعمل في هذه الورقة على إبراز تداول الرموز في التاريخ التركي والسياقات التي تؤدي إلى قتل رمز وتعويضه بآخر. كما سوف نستعرض هذه الرموز ليس حسب أسبقيتها زمنيا، ولكن حسب أسبقية استحضارها في مختلف السرديات.

(*) معهد الدوحة للدراسات العليا، قطر.

(1) افتتاحية جريدة «العقد الجديد» Yeni Akit بقلم Murat Alan بتاريخ 16 أبريل 2017.
Eski Turkıyye 16 Nısan akŞam vefat etmiŞ (وفاة تركيا القديمة مساء 16 أبريل).

• من سليمان القانوني إلى سليم الأول في الإستوغرافية العثمانية

كان الرمز الأول الذي أجمع عليه المؤرخون العثمانيون والأتراك إلى نهاية القرن التاسع عشر، هو السلطان سليمان القانوني (1520-1566)، حيث استحضره سائر المؤرخين ونوهوا بفتوحاته وبعظمة عصره إلى درجة أن الصفة التي ألصقت به كانت تتنوع بين القانوني والعظيم. وقد كانت الإستوغرافية الأوروبية سباقة إلى رسم صورة خارقة لهذا السلطان، وربما تحكمت في ذلك تلك النجاحات العظيمة التي حققها على مستوى توسع الدولة العثمانية في أوروبا.

وقد أحصى مانتران (Robert Mantran) عدد الكتابات المخصصة لسليمان القانوني فوجدها تناهز 75 عنوانا، أنجزها مؤلفون ينتمون لمختلف بقاع العالم الإسلامي بما فيه البلاد العربية والولايات البلقانية وإستانبول وإيران والهند. وخلال فترة حكمه، أحاط سليمان القانوني نفسه بالعديد من الفنانين والشعراء والأدباء، وسارع هؤلاء إلى الكتابة عن عصره وتخليد أمجاده، فأسهموا في جعل عهده بمثابة «العصر الذهبي» للدولة العثمانية. وسواء كانت هذه الكتابات نثرا أو شعرا، وبصرف النظر عن اللغة التي كتبت بها، (عربية كانت أو فارسية أو تركية، فقد كانت تنظر إلى الفترة السليمانية بشكل عجائبي وتعطي صورة مثالية للأحداث[1] التي عرفتها الدولة العثمانية خلال فترة حكم هذا السلطان.

ومهما كانت المبالغة في رسم صورة زاهية لعهد سليمان القانوني، إلا أنه ينبغي الاعتراف أن هذه الصورة قد شكلت الدعامة الأساسية لما سينجز لاحقا من كتابات حول هذا العهد، لأنها أمدتنا بوصف ضاف للأحداث، ومكنت الباحثين من إعادة بناء ماضي الدولة العثمانية خلال هذه الحقبة.

والملاحظ أن الكتابة حول سليمان القانوني لم تكن بسيطة في القرن السادس عشر، بل كانت معقدة لأن الكتابات البسيطة لم تكن لتحظى بالقَبول داخل الأوساط المثقفة، وهي الأوساط التي كانت مقصودة بالإنتاج الأدبي إلى منتصف القرن التاسع عشر. فقد كتب المؤرخون الرسميون عن العهد السليماني باللغة الفارسية امتثالا إلى التقليد العثماني، فألف فتح الله عارف (توفي سنة 1561- 1562م) **سليمان نامه** التي تشكل الجزء الخامس من كتاب شامل عن تاريخ الإسلام والدولة العثمانية. وكانت حصة سليمان القانوني منها 35000 بيتا من أصل 60000 بيتا التي يتكون منها الكتاب، بالإضافة إلى احتوائها على العديد من المنمنمات

(1) Robert Mantran, «L'historiographie ottomane à l'époque de Soliman le Magnifique,» in actes du colloques *Soliman le magnifique et son temps* (Paris : Publié par Gilles Veinstein, La Documentation française 1992) : 25-32.

(Miniatures) التي تبرز المشاريع الثقافية والعسكرية للسلطان سليمان القانوني.[1] كما أنجز أفلاطون شيرواني (Eflatun Şirvanli، توفي سنة 1569م) [2]كتابا آخر في تمجيد سليمان القانوني، يكاد يضاهي كتاب فتح الله عارف من حيث الأهمية.

ومع توالي الفتوحات والمنجزات الاقتصادية والعمرانية في عهد السلطان سليمان، ساد اعتقاد لدى النخبة أن هذا السلطان ليس بالشخصية العادية، ومن ثمة أكد الشاهنمجيون على الجانب القداسي في شخصيته، حيث كان في نظرهم يمتح مما يسمى في الثقافة الصوفية بـ «النور المحمدي.» وهذا الجانب القداسي في صورة سليمان ينبئ أيضا بأنه هو نفسه كان يؤمن بقدسية شخصيته.[3]

ولا شك أن هناك فرقا كبيرا بين **الشاه نامه** كما كتبت في الزمن السليماني وتلك التي كتبت بعده، ولا يكمن الفرق فقط في تباين أنماط الكتابة، بل في الأساليب والمهارات الأدبية أيضا، ولا علاقة لهذا التباين بالأوضاع التي عاشتها الدولة العثمانية بعد السلطان سليمان القانوني، مما جعل صورته تظل بمثابة المرجع عن الازدهار في الكتابات التاريخية اللاحقة.

وذلك أن المؤرخين الذين انبروا للكتابة بعد **الشاه نامه**، لم يستطيعوا الإفلات من الصور التي رسختها، وليس أدل على هذا من المكانة الرفيعة التي يحظى بها سليمان القانوني في مختلف الكتابات إلى منتصف القرن التاسع عشر. ففي عهد هذا السلطان نفسه، انخرط وزراء الدولة في كتابة تواريخ آل عثمان، ولم يجدوا بدا من التعرض لعهد السلطان سليمان. ونذكر من بين هؤلاء لطفي باشا، ذي الأصول الألبانية، الذي تولى منصب الصدارة العظمى من 1539م إلى سنة 1541م، وأنجز كتاب **تواريخ ء آل عثمان** الذي يقدم فيه سردا لتاريخ الدولة العثمانية إلى سنة 1553م. وهو وإن كان قد انتقد الأوضاع في **آصف نامه**، إلا أنه لم يجرؤ على مقام السلطان، وتوجه بسهام النقد إلى الحاشية.[4] أما رستم باشا الذي تولى الصدارة العظمى

(1) Esin Atıl, *Süleymannâme (The Illustrated History of Süleyman the Magnificent)* (Washington : Published by National Gallery of Art, 1986), 47, 55.

(2) Halil İnalcık, «The Rise of Ottoman Historiography,» *Historians of the Middle East*, (London : ed. B. Lewis – PM Holt, 1962), 163.

(3) يبدو هذا الاعتقاد في مقدمة الرسائل السلطانية التي بعث بها السلطان سليمان القانوني إلى ملوك الأمم الأخرى كما في النقيشات الموضوعة على أبواب ما خلفه من مباني: يقول سليمان في إحداها مثلا: «السلطان الأعظم، الخاقان المعظم، مولى ملوك العرب والعجم، كاسر رقاب الأكاسرة، قامع أعناق الفراعنة، الغازي في سبيل الله، الملك المجاهد في إعلاء كلمة الله، فخر سلاطين آل عثمان، السلطان سليمان خان، ابن السلطان سليم خان، أيد الله دولته، وأيد شوكته» ينظر: أكمل الدين أحسان أوغلى، **الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي**، ترجمة صالح سعداوي (القاهرة: دار الشروق، 2011)، 325.

(4) عبدالرحيم بنحادة، **المثقفون والأزمة في العالم العثماني**، في **دراسات وبحوث في التاريخ العثماني** (الرباط: دار أبي رقراق، 2017)، 57-56 .

مرتين: الأولى من سنة 1544م إلى سنة 1453م والثانية ما بين سنتي 1555م و1561م، فقد كتب أيضا **تواريخ آل عثمان** واستعرض فيه الأحداث إلى سنة 1560م. وبالإضافة إلى التواريخ العامة التي كتبها وجهاء الدولة، تخصص البعض في تتبع أحداث بعينها مثلما فعل فتح الله عارف، صاحب **شاه نامه** المشار إليها، عندما كتب **سفر نامه ء سليمان** الذي كرسه لتخليد الحملة العثمانية على المحيط الهندي سنة 1538م. وانبرى أبو الفضل محمد (ابن إدريس بلديسي) إلى كتابة ذيل لكتاب **هشت بهشت**، قبل أن ينصرف جلال زاده صالح جلبي[1] (توفي سنة 1565م) إلى كتابة **تاريخ ء سلطان سليمان** الذي كرسه لتاريخ الحملات العثمانية في السنوات الثمانية الأولى من تولية السلطان سليمان للعرش، وهي الفترة التي تميزت بكثافة الحملات العثمانية التي تولى قيادتها السلطان نفسه.

والملاحظ أنه قبل موت سليمان القانوني كان مؤرخون محترفون قد انبروا إلى تصنيف كتب تؤرخ لحقبة توليه السلطة ضمن تاريخ الدولة العثمانية، ومن هذه الكتابات «**كنه الأخبار**» لمصطفى علي (1541-1600م)، وهو من المثقفين الموسوعيين، وإليه يعود الفضل في الكشف عن أسباب أزمة الدولة العثمانية. وقد تناول المرحلة السليمانية من التاريخ العثماني بعين ناقدة فاحصة، ووقف عند اختلالات سياسية ومالية في ذلك الزمن، إلا أنه يبرئ السلطان منها، على النحو الذي نجده عند لطفي باشا، ويلصقها بحاشيته، لأنه ظل يتخيل هذه الفترة باعتبارها «المرحلة الأوغسطينية (Augustinian Period) في تاريخ الدولة العثمانية.[2]

وقد تنامى الاهتمام بالسلطان سليمان القانوني في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر نتيجة الوضعية المتأزمة للدولة العثمانية، حيث تم استحضار شخصية هذا السلطان والتذكير بمآثره ومكارمه بعدما أصبح السلاطين العثمانيون ألعوبة في يد بيروقراطييهم وحريمهم. فقد سعى كاتب جلبي (حاجي خليفة) إلى إجراء العديد من المقارنات بين وضعية الدولة العثمانية زمن محمد الرابع وزمن سليمان القانوني لكي يرسخ فكرة المرحلة الذهبية للدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان العظيم. كما ظل سليمان حاضرا كشخصية قوية في كتابات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مع تسجيل ملاحظة وهي إعادة استكشاف زمن السلطان سليمان القانوني، كزمن ذهبي في تاريخ الدولة العثمانية من خلال النصوص الأجنبية، إلى درجة يمكن أن نعتبر معها أن حضور سليمان إنما كان بمنزلة رجع الصدى لما ورد في النصوص الأوروبية.

(1) Tayyib Gökbılgın, Celalzade, in *Encyclopedia of Islam*, T.III, 63-64.
(2) Rhoads Murphey, «Mustafa Ali and the Politics of Cultural Despair,» in *International Journal of Middle East Studies,* Vol. 21, No. 2 (May, 1989): 243-255.

وعندما هم العثمانيون بكتابة تواريخ تركيبية لغايات ديداكتيكية منذ سنة 1869م، انبرى أحمد وفيق باشا (1823-1891م)، وهو أحد الوجوه البارزة في حركة التحديث في الدولة العثمانية زمن التنظيمات، إلى وضع كتاب يتضمن الخطوط العريضة لتاريخ الدولة العثمانية من قيامها إلى عهد السلطان عبد العزيز، وهو كتاب درِّس في المدارس العثمانية لمدة تزيد عن ثلاثة عقود، وكان زمن السلطان سليمان القانوني حاضرا فيه بكل ثقله،[1] ولم يجد وفيق باشا بدا من استعادة هذا الزمن الذهبي مستفيضا في انتصارات هذا السلطان على المجر والنمسا، وقدرته على التجييش، وسعيه إلى التحكم في المجالات الاستراتيجية (رودس، الجزائر، مالطة، القرم). ولم تكن الصفحات المخصصة للسلطان سليمان القانوني في «**الفذلكة**» كبيرة جدا، إلا أنها كانت قوية من حيث كثافة المعلومات واللغة الموسومة بالبطولية والحنينية.

غاب السلطان سليمان القانوني عن الساحة الثقافية العثمانية ردها من الزمن بسبب التحولات التي عرفتها الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر، واعتلاء عبد الحميد الثاني السلطة سنة 1876م، وتكرس هذا الغياب مع تتويج حركة الشبان الأتراك بالثورة الكمالية سنة 1908م، لكنه ما لبث أن عاد إلى واجهة الأحداث في السنوات الأخيرة لتغذية العثمانية الجديدة بأعمال تاريخية وتخييلية حديثة.[2]

• سليم الأول في سردية الاتحاد الإسلامي

يبدو أن سردية سليمان العظيم لم تقنع عبد الحميد الثاني ورجال دولته، وأن نظرتهم إلى سليمان القانوني كانت ملتبسة بعض الشيء. حيث جرى استبدال هذا الرمز برمز آخر يتماشى مع السردية الجديدة التي أرادت الدولة تبنيها، والمتمثلة في أن السلطان العثماني هو خليفة للمسلمين. وتستند هذه السردية على كيفية إحراز العثمانيين للقب الخلافة.

والحاصل أن مسألة الخلافة طفت على السطح منذ نهاية القرن الثامن عشر، ويعتقد بعض المؤرخين أن العثمانيين لم يولوا مسألة الخلافة اعتبارا كبيرا، لأنهم كانوا أقوياء بحد

(1) تنبغي الإشارة إلى أن السلطان سليم كان حاضرا بقوة إلا أن حضوره ارتبط إلى حد بعيد بابنه السلطان سليمان القانوني، فقد تضمن الكتاب فقرات مهمة عن تاريخ السلطان سليم الأول. والمهم هو أنها أكدت على الجانب المتعلق بالعمليات الحربية التي قادها السلطان سليم الأول أيضا من أجل توحيد العالم الإسلامي، ولعل هذا الأمر ارتبط إلى حد بعيد بواقع الصراع العثماني الروسي في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر. ينظر: أحمد وفيق، **فذلكه ء تاريخي عثماني** (إسطنبول: مطبعه عامره، 1872)، 205-206.

(2) عاد سليمان القانوني ليحتل مكانة كبيرة في المشهد السياسي التركي بعد فوز حزب العدالة والتنمية بالانتخابات الرئاسية، حيث حاول الإعلام التركي إحياء شخصية هذا السلطان من خلال إعداد كتابات عنه، وحظيت بالاهتمام بعض منجزاته المعمارية مثل جامع السليمانية وغيره، كما جرى إعداد العديد من الأشرطة الوثائقية، والأكثر من ذلك إعداد مسلسل تلفزيوني خصصت له ميزانية ضخمة بعنوان «القرن العظيم،» (Muhteşem Yüzyıl).

السيف، أو على الأقل لأن فهمهم لمسألة الخلافة كان مختلفا عن فهم من سبقهم من الخلفاء المسلمين. بيد أن شروطا تاريخية دفعت بالمؤرخين إلى استدعاء هذا اللقب خاصة بعد ضياع شبه جزيرة القرم غداة الحرب العثمانية الروسية 1768- 1774م، وقد حرص السلطان عبد الحميد الأول على التأكيد على هذه المسألة في العديد من المعاهدات والمراسلات مع ملوك الأمم الأوروبية. ففي المعاهدة التي وقعها الروس والعثمانيون سنة 1774م، حصل الروس على إمكانية التدخل لحماية المسيحيين الأرثدوكس الذين يعيشون في الأراضي العثمانية، وفي المقابل حصل السلطان العثماني، من جانبه، على ضمان استمرار خضوع «جميع شعوب التتار» المستقرة في الأراضي التي ضمتها روسيا «للمبادئ المنصوص عليها في قانونهم،» والخطبة باسم السلطان-الخليفة في صلاة الجمعة.[1] وجرى خلال هذه الأثناء استحضار مسألة فتح مصر وتسلم مفاتيح الكعبة ورموز الخلافة من السلطان العباسي الذي كان يعيش في كنف السلطان المملوكي بالقاهرة.

وفي نهاية القرن التاسع عشر زادت الحاجة إلى استحضار هذه السردية، وأعطي سليم الأول مكانة متميزة ضمنها باعتباره أول الخلفاء. ثم توالت النكسات العسكرية في البلقان، ووجد العثمانيون أنفسهم مضطرين إلى توقيع معاهدة برلين في يوليو 1878م، وكان نص المعاهدة يفتح الباب أمام التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية للدولة العلية، وساد اعتقاد داخل أوساط النخبة والشارع العام أنه أصبح من الضروري استكشاف مسارات أخرى من أجل مواجهة التدخل الأوروبي السافر. فكان هذا المسار هو الاتحاد الإسلامي برعاية السلطان العثماني.

وكان على السلطان عبد الحميد أن يسلك طرق ثلاثة من أجل بلوغ هذا المسار:

الطريق الأول، العمل على تقويض الإصلاحات التي عرفها زمن التنظيمات، والتي كانت تضر بشكل خاص بالرمزية الروحية للسلطان من حيث طريقة علمنة الدولة العثمانية، وإعادة النظر في توزيع السلطة المركزية في العديد من الهيئات الحكومية، والتأكيد على عثمانية الدولة. وهكذا بذل عبد الحميد الثاني قصارى جهده لقلب كل هذه الإجراءات، وإلغاء إصلاحات التنظيمات، وجرى ذلك من خلال إعادة مركزة السلطة العثمانية. وأصدر في بداية عهده دستورًا سمح بإنشاء عدة هيئات تشريعية، بيد أنه سرعان ما علق العمل به بعد سنتين من توليه السلطة. وأعاد البيروقراطيين إلى البلاط السلطاني من أجل فرض سلطته.

(1) Paul Dumont, «L'instrumentalisation de la religion dans l'empire ottoman à l'époque de l'expansion européenne 1800-1914,» in *European Journal of Turkish Studies*, 27 (2018), 19ps, URL : http://journals.openedition.org/ejts/5933.

الطريق الثاني، تكريس فكرة الاتحاد الإسلامي من خلال التأكيد على دوره كسلطان-خليفة. وإعطاء مضمون جديد للخلافة، فالخليفة هو «ظل الله على الأرض، المنفذ لشريعته، وتجب على جميع المسلمين طاعته، «شاكرين إذا فعل الصواب، وصابرين إذا أخطأ،» وكان هذا الموقف الذي أعلنه بقوة الشيخ الصوفي أبو الهدى الصيادي (1849 -1909م)، هو ما مهد لإعطاء شرعية دينية لمطالبة السلطان بلقب الخليفة. فالسلطان العثماني لم يكن قبل هذه الفترة يعتبر نفسه خليفة على المسلمين وفقا للشروط التي ينبغي أن تتوفر في الخليفة، لأن السلاطين العثمانيين لا يتوفر فيهم شرط القرشية، ولكنهم سعوا، مع ذلك في إطار شروط سياسية معروفة، إلى تبني الخلافة، وتمكنوا بذلك من تعزيز موقعهم كزعماء في البلاد الإسلامية، بيد أنه سرعان تم إضعاف هذا الموقع زمن إصلاحات التنظيمات .

الطريق الثالث، توسيع دائرة مستشاريه من ذوي التوجه الديني، حيث امتلأت جنبات قصر يلدز بالطرقيين من أمثال الشيخ محمد ظافر (1829-1903م)، وهو من شيوخ الطريقة الشاذلية، وأبو الهدى الصيادي، أحد الوجوه البارزة في الطريقة الرفاعية (1849-1909م)، والشرفاء؛ كما وفد على القصر عدد من العلماء المسلمين من خارج الأراضي العثمانية كالسيد فضل باشا (1820-1901م) من اليمن، وجمال الدين الأفغاني صاحب فكرة الجامعة الإسلامية.[1] واضطلع هؤلاء العلماء والمتصوفة بدور كبير في الترويج لفكرة خلافة عبد الحميد في البلاد الإسلامية، وساعد على ذلك انتشار الطرق الصوفية في معظم بقاع العالم الإسلامي، وخاصة الطريقة الشاذلية التي تحولت إلى شبكات دعاية للخلافة العثمانية. وبالإضافة إلى الدور الذي قام به العلماء والمتصوفة، كان للحج دور بارز في هذا الباب، وذلك من خلال العناية بالحجاج المسلمين عن طريق إحداث خط حديدي استغرقت أشغاله من سنة 1901م إلى سنة 1908م[2]من جهة، وبث دعاة في مكة والمدينة للترويج لفكرة «الخليفة عبد الحميد» من جهة ثانية.

وفي الإجمال، استعملت «الخلافة» للذود عن مؤسسة السلطان وعن الدولة من خلال استحضارها في مختلف المعاهدات التي وقعها العثمانيون مع أوروبا خلال القرن التاسع عشر. ولكن السلطان عبد الحميد كان بحاجة إلى استعمال رمز من الرموز التاريخية من أجل إقناع

(1) Paul Dummont, L'instrumentalisation de la religion dans l'Empire ottoman à l'époque de l'expansion européenne (1800-1914) :Un parcours à travers les fondements historiques des politiques turques d'aujourd'hui, in *European Journal of Turkish Studies*, 27)2018), (https://doi.org/10.4000/ejts.5933).

(2) Kais Ezzerlli, Le pèlerinage à la Mecque au temps du chemin de fer du Hedjaz 1908-1914, in Le pèlerinage au Maghreb et au moyen orient, edited by Sylvia Chifoleau- Anna Madoeuf(Beyrouth : publication de l'institut français du proche orient, 2006),167-191.

الرأي العام الداخلي. ولم يكن هذا الرمز سوى سليم الأول، لأنه فاتح مصر وأول سلطان سهر على شؤون حماية الحجاج المسلمين وخدمة الحرمين الشريفين. ويمكن تتبع توظيفه لهذا الرمز من خلال ما يلي:

أولا- سمى أكبر أبنائه باسم سليم (1870-1937م)، وحرص على تربيته تربية إسلامية، وحثه على تعلم اللغة الفارسية والفرنسية، وأدخله المدرسة العسكرية، وكان يهيئه ليتولى العرش بعده.

ثانيا- عمل على تكريس الكتابات عن سليم الأول، واهتم بـ«**سليم نامه**»[1] وإعادة نسخها، وهو ما يظهر من خلال العودة إلى فهارس المخطوطات في مكتبة السليمانية ونور عثمانية وطوب قابي، إذ تعود معظم النسخ إلى الفترة الحميدية. وجرى تقديم عدد من الشروح لهذا النوع من الكتابات التي استحضرت مكارم السلطان سليم الأول.

ثالثا- شجع المؤلفين الذين أولوا عناية كبيرة لسليم الأول، وأبرزوا أدواره الطلائعية، ومن بينهم نامق كمال (1840-1888م) الذي خصص واحدا من كتبه المعنون بـ: «Evrâk-ı Perîşân»[2] لتتبع سيرة هذا السلطان. ويعتبر «Evrak-ı Perişan»، من الأعمال التي كتبها نامق كمال (ما بين سنة 1872 وسنة 1873م) بهدف الدفاع عن الإسلام والإمبراطورية العثمانية ضد المستشرقين الذين روجوا لأفكار سلبية ضد الإسلام والشخصيات الإسلامية والإمبراطورية العثمانية. وينسجم هذا الموقف مع التوجه الذي اختاره عبدالحميد الثاني.

يروي الكتاب قصة حياة ثلاث شخصيات بصمت تاريخ العالم الإسلامي، ويتعلق الأمر بصلاح الدين الأيوبي والسلطان محمد الفاتح والسلطان سليم. ويذكر المؤلف أنه كتب قصة حياة صلاح الدين الأيوبي للدفاع عن هذا البطل الإسلامي ضد الادعاءات الكاذبة التي روج

---

(1) نوع من النصوص التاريخية التي تمجد أعمال السلطان سليم الأول، وقد كتبت زمن ابنه السلطان سليمان القانوني، وكان الغرض من إنجازها إعادة الاعتبار للسلطان سليم الأول الذي أنجز أعمالا رائدة بالرغم من قصر فترة حكمه. وقد كان الهدف منها أيضا تجاوز تلك الصورة التي تكونت عن سليم الأول، والتي تتلخص في التأكيد على جانب القساوة في التعامل، والتوقف فقط عند تمرده على والده وعلاقاته المتميزة بالعنف مع إخوته واعتباره سلطانا ظالما. ولعل من أهم **السليم نامه** ما كتبه إدريس بلديسي، وإن كنا لا نتوفر عليه إلا من خلال ما كرس لاحقا من تخليد لحملات سليم الأول سواء تعلق الأمر بالحملة على إيران أو الحملة على مصر. ينظر:

Vesile ALBAYRAK SAK, «Selimnâmelerde Yavuz Sultan Selim'in Tahta Geçişi,» in *Turkish Studies*, Vol. 1216, p.2552

Ahmet Ugur, «Selimname,» in *Islam Ansiklopedisi*, cilt.36, 4401.

(2) Namik Kemal, *Evrak-ı Perişan Selahaddin-Fatih-Yavuz* (Istanbul : Tema Yayınları , 2017).

لها المؤرخون الأوروبيون. وكان إقدامه على هذا العمل، كما يبرز ذلك في المقدمة، عندما بلغ إلى مسامعه رغبة بعض الجهات ترجمة كتاب (Michaud Joseph) (1767-1839م) عن «تاريخ الحروب الصليبية»[1] إلى اللغة التركية. ويشدد نامق كمال على الدور البطولي في كتابته لسيرتي السلطانين محمد الفاتح وسليم الأول قياسا على الأعمال البطولية لصلاح الدين الأيوبي، لقناعته بأنهما سارا على خطاه. وكان يروج إلى أن الدول تعطي أهمية كبيرة للأعلام التي أسهمت في صنع تاريخها، وأن الأتراك مدعوون لإبراز الشخصيات المنسية، والوقوف عند أدوارها في الدفاع عن الإسلام والدولة العثمانية، وأن سليم الأول يعتبر واحدا من أهم هذه الشخصيات.

أما مصطفى نوري باشا الذي حاد في كتابه «**نتايج الوقوعات**» عن النمط المعتمد في الكتابة التاريخية العثمانية، وتأثر بنظرية ابن خلدون في مراحل أعمار الدولة، ونسج على منوالها في صياغة كتابه، فخصص الفصل الثالث من كتابه المذكور لمرحلة أوج الدولة العثمانية، التي تبتدئ من وجهة نظره بعهد سليم الأول وتنتهي بانتهاء حكم مراد الثالث، أي من سنة 1512 إلى سنة 1595م، ويبدو من القراءة الأولية لهذا التحقيب أن صاحبه قد خصص لفترة السلطان سليم الأول (1512-1520م) ما يزيد عن 10 صفحات،[2] وجعلها نقطة بداية مرحلة الأوج، وأنه لم ير في عهد سليمان القانوني سوى استثمارا واستمرار لها. وأورد العديد من الشهادات التي تبرز هذه الاستمرارية،[3] ومنها حرص السلطان سليم الأول على تلقين ابنه سلوكيات السلطنة الصحيحة.

ولعل هذه الصورة التي رسمها مصطفى نوري باشا هي التي جعلت المؤرخين الذين أرخوا لعهد السلطان عبد الحميد يسيرون على نفس النهج، ومن هؤلاء مثلا كامل باشا (1832-1913م)، الذي كان من المنافحين عن السياسة الإسلامية للسلطان عبد الحميد وأحد رموزها،[4] وكتب تاريخا سياسيا يستعرض فيه أطوار التاريخ العثماني من التأسيس إلى زمن

(1) Joseph Michaud, *Histoire des croisades* (Paris : Ponthieu, 1825).

(2) Mustafa Nuri Paşa*, Netâyicü'l Vukuât,* Cilt. I, 88- 101.

(3) Sami Şener, «The Social Perspective of Mustafa Nuri Pasha From an Exponent of Ibn Khaldun in the Ottoman Empire,» in *İbn Haldun Çalışmaları Dergisi*, 1 (1) (2016): 187-208.

(4) يعتبر كامل باشا القبرصلي واحدا من الوجوه البارزة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، تلقى تعليمه الأول بقبرص ونظرا لإقباله على تعلم اللغات العربية والفارسية واليونانية والفرنسية، سافر إلى مصر حيث تابع دراسته بمدرسة الألسن، لكنه ما لبث أن تحول إلى الأكاديمية العسكرية وغداة تخرجه من هذه المدرسة دخل في خدمة عباس حلمي باشا كمترجم، وكان شغفه باللغات هو ما جعله يقبل على تعلم اللغة الإنجليزية التي أتقنها في ظرف وجيز. وعلى إثر عودته إلى إستانبول، تقلد عدة مناصب في الإدارة المركزية، وعين بعدها واليا على طرابلس سنة 1869م، كما تولى ولاية حلب، لكنه سرعان ما عين مديرا لإدارة «الأمور الأجنبية،» وفي سنة 1871م عين واليا على القدس ثم على الهرسك سنة 1872م فبيروت سنة 1875م وغيرها من الولايات العربية

السلطان عبد المجيد الثاني انطلاقا من النصوص المحلية والأجنبية. وخصص للفترة السليمية حيزا مهما من تاريخه السياسي،[1] ركز فيه على تلك الروايات المتداولة حول تسلم سليم الأول مفاتيح الكعبة.

وينضاف إلى هؤلاء بعض الوافدين على إستانبول من التتار المسلمين الذين صاروا يتطلعون لخدمة دولة الخلافة تحت تأثير الحروب الروسية العثمانية، ومن هؤلاء محمد مراد ميزانجي (1854-1917م). وعلى الرغم من أن ميزانجي سرعان ما انقلب على عبد الحميد، وأصبح مناضلا في صفوف الشبان الأتراك، لا سيما بعد انتقاله إلى باريس، إلا أن ما كتبه في **تاريخ عمومي**[2] «أو **تاريخي أبو الفاروق**» عن فترة السلطان سليم الأول يظل منسجما مع التوجه الذي أراده السلطان عبدالحميد،[3] ويعكس قوة حضور السلطان سليم الأول في الكتابات التاريخية المنجزة في الفترة الحميدية.

• جينكزخان في رواية الوطنيين الأتراك

لم تقنع سردية مؤرخي الدولة العثمانية الوطنيين الأتراك سواء قبل الفترة الحميدية أو خلالها. ولما كان التاريخ بمثابة أداة مسخرة للثورة على النظام القائم، أقدم المؤرخون الأتراك على الكتابة التاريخية خلال هذه المرحلة، وعملوا على تجاوز السردية التي تربط التاريخ التركي بالدولة العثمانية، بل عادوا إلى البحث في هذا التاريخ قبل قيام الدولة العلية. ولعل أحسن مثال على ذلك الكتاب الذي أنجزته جمعية التاريخ العثماني سنة 1917، حيث أفرد الكتاب بابه الأول لتاريخ الأتراك قبل الدولة العثمانية، وعالج الفصل الأول منه أصول الترك، وانتشارهم في المجال قبل التاريخ. وخصص الفصل الثاني لقبائل الترك سواء الغربية منها أو الشرقية. وعالج الفصل الثالث تاريخ الأتراك في العصور الوسطى، وتطرق فيه المؤلفان لاعتناق أتراك الشرق وأتراك الغرب للإسلام. وبعد توقف المؤلفين عند المماليك التركية، والدور الذي اضطلع به الأتراك في انتشار الإسلام، وما قاموا به من أدوار في عهد كل من الدولتين العباسية

والبلقانية. واستطاع خلال توليه هذه المناصب حل العديد من النزاعات كالنزاع الذي كان قائما بين المسيحيين في بيت لحم. وفي سنة 1884م نودي عليه إلى إستانبول ليشغل مناصب حساسة زمن السلطان عبد الحميد، فتولى وزارة للعدل ووزارة الداخلية كما عين صدرا أعظما.

ينظر:

Attia Cetin , «Kıbrıslı Kamil Paşa, Osmanlı Devlet adamı ve sadrazamı,» in *Islam Ansiklopedisi*, Cilt. 25, 391-393.

(1) Mehmed Kamil Paşa, *Tarih-i Siyasî-i Devlet-i Âliye-i Osmaniyye*, 74-84.

(2) كتب محمد مراد ميزانجي تاريخ عمومي بحدود سن 1296- 1897/1297 - 1898 في أربعة مجلدات، وأنجز مختصرا لهذا الكتاب سنة 1885/1302.

(3) Mizancı Mehmed Murad, *Tarih-i Ebu'l Farûk* , 2.cilt, s.127-170.

والطولونية، استعرضا رواية تأسيس الأتراك للدولة السلجوقية، وتوسعاتها في المجالات المشرقية في إيران والبلاد العربية.[1] وتناولا بالدراسة في الفصل الرابع الأدوار السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية للأتراك، وجهودهم في بناء الدولة ووضع لبنات مؤسساتها.

ويعتبر ما ورد في الكتاب رجع صدى للنقاش الذي دار على أعمدة الصحف والمجلات التركية خلال هذه الفترة، بعدما صارت هذه الصحف تولي عناية خاصة للقومية التركية. ولعل من بين أبرز هذه المنابر الإعلامية مجلة الوطن التركي «تورك يوردي» التي كرست العديد من المقالات للأدوار التي لعبها الأتراك في مختلف المجالات في الداخل والخارج.

وضعت هذه المجلة في عددها الأول خطة واضحة تتكون من العناصر الأساسية التالية: أولا: الحرص على الكتابة بلغة مبسطة يسهل على معظم القراء استيعابها؛ ثانيا: الاهتمام الكبير بالقومية التركية، ومن ثمة التركيز على مواضيع ذات بعد تاريخي؛ ثالثا: نسج علاقات مع الشعوب التركية في مختلف مناطق العالم؛ رابعا: الحرص على جمع كل المعلومات المتعلقة بما يجري داخل العالم التركي وخارجه، سواء تعلق الأمر بـ «الأحداث السعيدة» أو «بالأحداث الحزينة؛» خامسا: ضرورة الدفاع عن الحقوق السياسية والاقتصادية للعنصر التركي، والإسهام في الترويج للوطنية التركية؛ سادسا: بذل كل الجهود من أجل الحيلولة دون انتشار الشعور بالإهمال واليأس في أوساط «الملة التركية؛» سابعا: الدفاع في المنابر الدولية على الحقوق الثابتة للأتراك أينما وجدوا.[2]

وإلى جانب مجلة الوطن التركي كانت مجلة الآداب العامة، ذات التوجه التحديثي، تعمل على تكريس المنحى القومي لدى الأتراك من خلال نشر إبداعات تركية، والدعوة إلى كتابة التاريخ بطريقة نقدية دونما اللجوء إلى المحاباة، وضرورة التركيز على الشخصيات التي صنعت «تاريخ الملة التركية» ومن بينها جينكزخان.

وقد خصص واحد من كبار الوطنيين الأتراك، وهو يوسف أكجورا (Yusuf Akçura) (1876-1935)، سلسلة من المقالات لإبراز الأدوار التي قام بها جينكزخان،[3] ثم جمعها في كتاب بعنوان **جينكزخان في نظر المؤرخ كوهن والمعلم بارتولد.**»[4] وبعد وفاته، أعيد نشر

(1) عثمانلي تاريخي، 151 وما يليها.

(2) تورك يوردى، العدد الأول من المجلة (1911)، 2.

Yusuf Akçura, *Türk Yılı,* 1928, 437-9.

(3) سبقت الإشارة في الفصل السابق إلى هذه السلسلة عندما كنا بصدد الحديث عن مجلة «تورك يوردى» التي كان يشرف على نشرها.

(4) Yusuf Akçura, *Müverrih Leon Cahun ve Muallım Barthold'a gore Cengız Han* edıted by Mehmetm Kaan Çalen, 2018).

هذه المقالات إلى جانب أعمال أخرى تناولت شخصية جينكزخان، بإشراف الباحث (Çalen Mehmet Kaan). والظاهر أن جينكزخان كان الشخصية التي أثارت إعجاب يوسف أكجورا منذ شبابه، حيث كان ينزعج كثيرا من وصف محمد الفاتح بأنه «أعظم شخصية»[1] في التاريخ التركي، ويرى أن هذا التوصيف يقلل من شأن أسلاف الأتراك، ويتجاهل الأدوار التي قام بها جينكزخان في التاريخ التركي.

وتستدعي هذه المقالات التي نشرها عن جينكزخان تسجيل الملاحظات التالية:

أولا- إن هذه النصوص ينبغي أن تقرأ كوثيقة من التاريخ الفكري التركي، لاسيما تاريخ الفكر التركي الحديث وتاريخ الفكر السياسي أكثر منها نصا تاريخيا يحلل شخصية جينكزخان، والسياقات التاريخية التي أفرزته. وهذا الأمر واضح من خلال المقال الأول في هذه السلسلة. إذ يرى أنه منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبتأثير اللغة والبحث التاريخي، «بدأ المكان والزمان التاريخيان في التوسع في المخيال التاريخي التركي العثماني. وشرعت جغرافية التاريخ التركي في إثارة اهتمام البحث التاريخي بأعلام من أمثال شمس الدين سامي، ونجيب عاصم،» وهي أعلام تنتمي لمجالات جغرافية مختلفة، «تجلب هذا الوعي الجديد بالتاريخ التركي.» ويبرز المؤلف كيف أسهمت المرحلة الدستورية الثانية والحروب البلقانية، إلى حد بعيد، في إفراز هذا الوعي التاريخي الجديد بظهور «تركيبة ثقافية سمتها التركية السياسية الجديدة واتساع الفضاء التاريخي الذي يوسع الأفق السياسي التركي.»[2]

ثانيا- كتب هذا المقال كرد فعل عن التصريحات المسيئة التي صرح بها توفيق أبو الضياء عن التتار، ونشرت في جريدة «تصوير الأفكار،»[3] وهو ما جعل يوسف أكجورا يتصدى لها مبينا الوحدة العرقية بين الأتراك والتتار، ومؤكدا على الدور الذي لعبه الأتراك في الحضارة العالمية. ويرى أن على الأتراك أن يكرسوا جهودهم لإظهار هذه الوحدة من أجل التغلب على جميع مظاهر التخلف. ففي إطار هذه الجغرافية الشاسعة يرى أكجورا أنه ينبغي أن تنمحي الفوارق في العالم التركي، أساسا لأنه ثمة «أمة واحدة،» والشخصية التي تعبر عن هذه الوحدة في نظره هي شخصية جينكزخان.

(1) Akçuraoğlu Yusuf, «Müverrih Léon Cahun ve Muallim Barthold'a Göre Cengiz Han (5),» *Türk Yurdu*, S. 5, 12 Kânûn-ı Sânî (1327), 142.

(2) Yusuf Akçura, *Müverrih* ,15.

(3) يتعلق الأمر بمقال «العثمانيون الجدد» الذي كتبه أبو الضياء توفيق، وصدر في جريدة **تصوير الأفكار** بتاريخ 10 حزيران 1909، ينظر العدد العاشر.

لقد حاول أكجورا في هذا المقال أن يضع صورة جينكزخان في صلب المخيال التركي. ويمكن مناقشة اهتمامه بهذا القائد في سياقات متعددة، أولها أن أكجورا تتاري، من المناضلين من أجل الوحدة التتارية التركية المغولية، وأنه أولى اهتماما خاصا لجينكزخان باعتباره شخصية تاريخية تجسد الاتحاد التركي التتاري، مما يؤشر على الأصول المشتركة. أما ثانيها فيتعلق بالسياق السياسي، المتمثل بالأساس في كونه أراد توجيه رسالة إلى العثمانيين، وتذكيرهم بأن التتار الذين ينتمون لهذا الاتحاد هم الآن تحت سطوة الروس.

لقد سعى أكجورا إلى إظهار جينكزخان كشخصية تجسد وحدة الأصل، ووضعه كواحد من أرفع وأرقى ممثلي القيم الوطنية، وقدمه كرجل دولة «حديث» قومي وعلماني وشرعي. واستعمل التيارات التاريخية المنتصرة للصراع بين إيران والترك لتعزيز هذه السردية ودعم نقط ضعف الرواية، واعتبر أن كل ذلك هو ما يساهم في بناء القومية التاريخية التركية.

يرى أكجورا أن المؤرخين العثمانيين أظهروا جينكزخان، وغيره من أمثال تيمورلنك والشاه إسماعيل، كأعداء للأتراك، لأن المنطلق كان سلاليا وسياسيا، واختزلوا التاريخ التركي في السلالة العثمانية. وتبعا لهذا، زينوا صورة الأعداء الحقيقيين من أمثال نابليون وبطرس الثالث وكاترين الثانية، لكونهم كما يقول أكجورا، نظروا إلى التاريخ بنظارات الآخرين، وهو ما يؤدي إلى نوع من الاغتراب عن الذات. وفي مقالات أخرى كتبها خلال المرحلة الدستورية الثانية، تطرق أكجورا بإصرار كبير إلى عدم «قدرتنا على النظر إلى التاريخ التركي من الداخل، وعدم قدرتنا على رؤية تاريخ العالم بأعيننا،»[1] لقد كان من أولئك الذين انتقدوا الكتب المدرسية التي أعدت أصلا باللغة الفرنسية وترجمت إلى التركية، وبالتالي فإنها كانت تنقل أحكام قيمة عن مكونات الأمة التركية برمتها. وفي هذا السياق، انتقد أكجورا بعض المثقفين والمؤرخين العثمانيين من أمثال نامق كمال وعبد الرحمن شرف، لكونهم كتبوا نصوصًا غذت خطاب العداء ضد جينكزخان.

ثالثا- يظهر أن استحضار جينكزخان كان مرتبطا بالفترة الدستورية الثانية، أي في الوقت الذي لمس فيه أكجورا أنه كان بحاجة فعلا إلى شخصية رومانسية. وكان يعول على استدعاء التاريخ العميق لإقناع قارئيه بوحدة الأتراك في زمن كانت الدولة العثمانية تعيش نقاشا صاخبا بين الإسلامويين والعثمانويين والوطنيين الأتراك. أما في المرحلة الجمهورية، فقد ركز على الفترة الحديثة دون أن يستهويه جينكزخان، لكونه اعتبر «التركية» (Turkisme) «قومية غريزية،»[2] مذكرا بأنها موجودة على المستوى القبلي قبل الحداثة، وأنها ليست بحاجة إلى أساس تاريخي.

(1) Akçuraoğlu Yusuf, «Müverrih Léon Cahun»., 17.
(2) Landau Jacob, *Pan –Turkism in Turkey : A Study of Irredentism*, 1981, 32.

ومن هنا يظهر أن التاريخ كان يستعمل إيديولوجيا، أي في المعارك الإيديولوجية. ويمكن القول إنه بالرغم من أن المقال يبدو للوهلة الأولى كبحث تاريخي، إلا أنه سرعان ما يتبين أنه إيديولوجي بالأساس، يهدف إلى خلق معاني وتوجيه رسائل للحاضر والمستقبل، وينتقي الأحداث التاريخية من أجل بناء هوية مرغوب فيها من خلال «ابتداع تقاليد جديدة.»

رابعا- ولأن الأيديولوجية لا تصمد كثيرا أمام التاريخ، فقد طغى على أطروحة أكجورا كثير من الارتباك، فعلى الرغم من أنه يقول إن المغول هم فرع من العرق التركي العظيم،[1] بل يصف التتار والمغول في إحدى مقالاته بأنهم «أعمام الأتراك،» إلا أن ذلك لا يقنعه ولا يتردد في القول بالأصل التركي لجينكزخان، وأن سكان الشمال التركي هم أتراك وليسوا تتارا. وها هنا نلاحظ كيف تطوع الإيديولوجية وليس التاريخ فحسب، بل تطوع الجغرافية أيضا. ولا يكتفي أكجورا بذلك، بل نجده يستدعي التاريخ القديم ليبرز أن ختم جينكزخان هو نفس الختم الذي استعملته الإمبراطورية التركية القديمة، ومن ثمة يعتبره خليفة للأباطرة الأتراك القدامى.

لم تنته سردية جينكزخان مع الوطنيين الأتراك،[2] بل ظلت حاضرة في الكتابات التاريخية التركية. ولنا أن نضرب مثالا على ذلك بنص لمؤلف مجهول بعنوان **التاريخ السري للمغول** أنجز سنة 1227م، وتمت العناية به من قبل مؤرخ تركي في أربعينيات القرن العشرين وهو أحمد دمير (Ahmet Demir)، ونشر سنة 1946م ضمن الصيغة التركية لكتاب (Manghol-un Niuca Tobca) الذي كتب في الأصل باللغة الصينية. ويستعرض هذا الكتاب الأصول الأسطورية للمغول، ويخصص فصولا لزعيمهم جينكزخان تؤرخ لطفولته وفتوحاته من منظور مغولي صرف. وقد أضحى كتاب **التاريخ السري للمغول** منذ تأليفه أحد المراجع الأساسية لتاريخ المغول ولحركة التوسع المغولية زمن جينكزخان، إذ يعتبر أهم مصدر يصف العرق المغولي وتاريخه ومعتقده الديني وتوسعاته وهيمنته من منظور جنكيزخان. ويظهر منذ الوهلة الأولى لقارئ هذا الكتاب أن ولاية جنكيزخان استندت إلى تراث الدولة التركية وخاصة جوكترك. ولم يتوقف صاحب هذا المؤلَّف عند التوسع المغولي فحسب، بل عمل على استحضار الروابط بين الترك والمغول، وأبرزت الدراسة، التي صدر بها له، علاقات الأتراك بالمغول على امتداد مئات السنين منذ الفترات المبكرة من التاريخ. كما كشفت عن نوعية العلاقات التي جمعت بين البدو الرحل الرعاة والمزارعين المستقرين في المجالين الاقتصادي والاجتماعي.

(1) Akçuraoğlu Yusuf, « Müverrih Léon Cahun…», 49.
(2) İbrahim ONAY, «*Effect and Contribution of Genghis Khan's State on Turkish Culture*», in ***Turkish Studies***, http://dx.doi.org/10.7827/TurkishStudies.3899 (25 August 2022).

وبهذا صار جينكزخان شخصية مركزية في الخطاب الوطني التركي خلال المرحلة الدستورية الثانية وخلال المرحلة الجمهورية أيضا، وكان الشخصية التي وحدت الشعب المُبتدَع، غير أن شخصيته سرعان ما توارت عن الأنظار لتترك مكانها لمن أعطى الدلائل بالملموس وما زال حيا في الذاكرة الجماعية للشعب التركي. إنه مصطفى كمال الملقب لاحقا بأتاتورك.

• مصطفى كمال: أبو الأتراك

كان مصطفى كمال مهوسا بالتاريخ العثماني، قارئا نهما ومطلعا على مجرياته ، وكان، من دون شك، على علم بالتجارب التي جعلت من بعض الشخصيات التركية رمزا من رموز التاريخ. وأصر على أن يسمى بالغازي جريا على سنن السلاطين الأتراك. وقد كان لقب الغازي[1] من الألقاب الأكثر استخداما في الثقافة التركية، ولم تكن له شحنة دينية.

إلى جانب ذلك، عمل مصطفى كمال على مواصلة التتريك الذي بدأه أسلافه من الوطنيين أثناء تحكم جمعية الاتحاد والترقي في السلطة. و«يمكن تعريف «برنامج التتريك» في الممارسة العملية على أنه مجموعة من السياسات التي تهدف إلى ترسيخ السيادة غير المشروطة للهوية العرقية التركية في جميع جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية تقريبًا، بما في ذلك اللغة المحكية في الشوارع وتدريس التاريخ في المدارس.»[2] إنها ببساطة الرغبة الجامحة في تحويل «البلد» إلى «وطن.» ومن أجل تحقيق هذا الهدف عمل الوطنيون الأتراك على:

أولا: شن حرب أيديولوجية دائمة ضد الجماعات العرقية والدينية واللغوية «الأخرى» التي كانت تعيش في نفس الرقعة الجغرافية. ولعل أهم ما يلخص هذا التوجه هو تصريح عصمت إينونو، رئيس الوزراء التركي، والشخصية الثانية في هرم الدولة في العهد الجمهوري الأول، في رد على ديبلوماسي بريطاني في سنة 1925 قائلا:

«نحن قوميون بصراحة، والقومية عامل تماسكنا، أمام الغالبية التركية ليس لبقية العناصر أي نوع من التأثير، علينا أن نقوم بأي ثمن بتتريك سكان بلادنا. وسوف نبيد الذين

(1) يرجع أصل كلمة الغازي التي تنتمي لنفس الجذر اللغوي للغزو والغزية، إلى عربية ما قبل الإسلام، وقد أصبحت تدل على «المسلم المقاتل على الحدود، ثم اتخذت لقبا للتشريف ومطلبا من مطالب القيادة، من قبل الحكام المسلمين الذين أعلنوا الجهاد ضد الكفار. وقد وظف السلاطين العثمانيون هذا اللقب بكثرة منذ البداية، وعاد إلى الواجهة عندما استعملته الصحافة التركية لوصف إنزال القوات العسكرية في قبرص سنة 1974م. ينظر: Bernard Lewis, *Le langage politique de l'Islam*, Traduit de l'Anglais par Odette Guitard (Paris :Galimard 1989), 102.

(2) Aktar Ayhan, «Conversion of a 'country' into a 'fatherland': the case of Turkification examined, 1923–1934,» in Ayhan Aktar, Niyazi Kızılyurek and Umut Özkırımlı (eds) *Nationalism in the troubled Triangle* (Basingstoke: Palgrave, 2010), 21–35.

يقفون بوجه الأتراك والقومية التركية، ما نطلبه من كل الذين يريدون خدمة البلاد هو أن يكونوا قبل كل شيء أتراكا مؤمنين بالقومية التركية.»[1]

ثانيا: تكريس الانسجام العرقي عن طريق التوطين الديموغرافي، وقد بدأت هذه العملية منذ أن حصل نزيف ديموغرافي في الدولة العثمانية عقب حرب البلقان التي خسرت فيها الدولة العثمانية 83 في المائة من أراضيها الأوروبية، وكان يعيش 69 في المائة من سكانها في أوروبا. في الوقت نفسه، كانت تراقيا الشرقية تحت احتلال الجيش البلغاري، وكان مسلمو الروملي الذين يعيشون في الأراضي التي دارت فيها هذه الحرب أول من عانى من هذه الكارثة. وعندما توقف تقدم الجيش البلغاري في ضواحي إستانبول، تدفق إلى العاصمة العثمانية ما يقرب من 250000 لاجئ تركي/مسلم. فكان من الضروري أن تجد الدولة العثمانية حلا لهذه المعضلة الديموغرافية، فعملت في هذا الباب على استقدام عدد كبير من مسلمي روسيا، كما جعلت هذه المسألة من أولويات سياستها أثناء المفاوضات التي أفضت إلى معاهدة لوزان سنة 1923م. وعلاوة على ذلك، أحدثت بنية إدارية لتنظيم عملية الانسجام الديموغرافي في إطار ما سمي «مديرية توطين العشائر واللاجئين،»[2] كما أحدثت لجنة علمية عهد إليها بدراسة الأوضاع الإثنية والدينية الممهدة لتحقيق الانسجام الديموغرافي، وقد أعدت هذه اللجنة مجموعة من الجداول الإحصائية والخرائط الإثنوغرافية للأناضول من خلال إقناع السلطات المحلية بجمع المعلومات على طول الطريق وصولاً إلى مستوى القرية. وجرى جمع النتائج في استانبول، وكانت تُحيَن بدقة كل ثلاثة أشهر.[3] ويمكن تلخيص أساس هذه الهندسة الديموغرافية في هذه الفترة على أنه «اختلاط السكان» من أجل تحويل أراضي الأناضول إلى «بوتقة انصهار» حيث اتحدت شعوب الأناضول لتشكيل «وطن» واحد. وعهد إلى وزارة الداخلية زمن طلعت باشا (1874-1921م) بتنفيذ هذه القرارات، وجرى تهجير مجموعات بشرية من الأناضول، مثلما حدث بالنسبة للأرمن الذين تم تهجيرهم إلى دير الزور[4] في سوريا، و بذلك جرت «تنقية» المجال الأناضولي وجعله تركيا بامتياز.

لقد مكنت هذه التغييرات الجذرية في النسيج الاجتماعي للبلاد الكماليين من تنفيذ سياسات التتريك في السنوات الأولى للجمهورية دون معارضة كبيرة. ومن ثمة العمل على إصدار مجموعة من القوانين التي تسير في اتجاه تكريس تتريك المجال الأناضولي كما هو الحل

(1) حميد بوزرسلان، **تاريخ تركيا المعاصر**، ترجمة حسين عمر (بيروت: منشورات المركز الثقافي العربي 2009)، 55.
(2) Fatma AKIN, «19. Yüzyilin Ikinci Yarisinda Aşiret Idaresi: Aşıret Müdüriyeti,» in *Hacettepe Üniversitesi Türkiyat Araştırmaları Dergisi*, 2020 Bahar (32), 59-70.
(3) Senem Aslan, «Citizen speak Turkish: A Nation in the Making,» in Nationalism an Ethnic Politics, 13 (2007): 245- 272.
(4) Ayhan Aktar, Conversion, 21-35.

عندما صادق البرلمان التركي في سنة 1932م على قانون يخص «حصر بعض المهن والحرف على المواطنين الأتراك فقط،» والذي يشتم منه استبعاد الأقليات بما في ذلك الأقليات المسلمة من ممارسة هذه المهن.[1]

ثالثا: البحث عن شخصية موحدة تجسد وحدة الأتراك وتوجه السياسة التركية في هذا الباب، بعد أن تمت عملية التتريك وابتداع شعب على رقعة جغرافية، فجرى البحث عن موحد لهذا الشعب، وتم نسج سردية جديدة. فكيف بنيت هذه السردية؟

مثلما عمل السلطان سليمان القانوني على إحاطة نفسه بأدباء وشعراء لبناء شخصية سليمان العظيم، عمل مصطفى كمال على العناية بالدائرة الضيقة، فأحاط نفسه بعتاة الوطنية التركية. وهم من نظَّر لمسألة «الأبوية التركية.» و«كانت عفت إينان، ابنة مصطفى كمال بالتبني، قد حضرت رسالة للدكتوراه في جامعة جنيف في موضوع العرق،[2] وكان يوسف أكجورا من عمل على هدم السردية العثمانية لرواية تاريخ الأتراك منذ وصوله إلى استانبول قادما إليها من قازاق، وكان صدري مقصودي عرسال قد انتبه إلى ضرورة التفكير في «الأسس الاجتماعية لبناء الشعور الوطني.»[3]

اجتمع هؤلاء الثلاثة في النهاية على تقديم تصور «إصلاح للتاريخ» في إطار ما عرف في التاريخ التركي بـ«أطروحة التاريخ التركي» (Türk Tarih Tezi)، وهي الأطروحة التي تقوم على أسس عرقية بالأساس متمثلة في أناضولية المجال وتاريخية الحضور التركي في الأناضول. ويمكن أن نتفهم هذا الإصلاح بإحالته على السياق الذي سبق أن أكدنا عليه أعلاه. فالدولة الجديدة بنيت على أساس أنها تركية، واتخذت إجراءات ثقافية وعسكرية من أجل بلوغ هذا الهدف كعمليات التهجير المستندة على أساس عرقي، ولم يعد من الممكن تأجيج المشاعر الوطنية بالاستناد إلى الدين، عندما دخلت تركيا في حروب.

لقد كانت العلاقة جدلية بين التاريخ والإيديولوجيا،[4] ففي الوقت الذي كانت فيه الإيديولوجيا تقدس التاريخ، كانت الوطنية تبني ذاكرة جماعية تقوم على أساس تقديس الشخص، وكان الخطاب السياسي يعمل من جهته بشكل متردد على شحذ عناصر هذه

---

(1) نتيجة لتطبيق هذا القانون، فقد ما يقرب من 9000 يوناني غير متبادل وظائفهم وهاجروا بعد ذلك بوقت قصير إلى اليونان بشكل نهائي. لا شك في أن سياسات التتريك كانت مسؤولة بشكل مباشر عن تضاؤل الجاليات غير المسلمة في استانبول خلال السنوات الأولى للجمهورية.

(2) عبد الرحيم بنحادة، **إستوغرافيات تركية: في كتابة الأتراك لتاريخ الدولة العثمانية (بيروت:** منشورات المركز العربي، 2022)، 250-251.

(3) عبد الرحيم بنحادة، في تطور كتابة التاريخ القانوني في تركيا، ضمن السياسة والتخيل، **أعمال مهداة إلى عبد الحي المودن**، (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2023).

(4) Étienne Copeaux, «Manuels scolaires : détournements et contournements,» in *Outre-Terre* (2005/1) :157- 171.

الذاكرة الجماعية، وكانت المدرسة تلعب دورا أساسيا في هذه الدينامية، دينامية العلاقة بين الإيديولوجيا والتاريخ والذاكرة الجماعية.

ومنذ سنة 1926م، تجندت الصحافة التركية لبناء صورة القداسة، فعملت جريدة «مليت» على نشر «ذكريات الغازي مصطفى كمال باشا» في 26 مارس،[1] وفي نفس اليوم شرع عارف عروج بك (Arif Uruç Bey) (1893- 1950م) في نشر سلسلة من المقالات خصصها لوقائع لقاء عدد من الشخصيات بمصطفى كمال، والانطباعات التي خرجوا بها من هذه اللقاءات، ونشرها في جريدة «وقت» (Vakit)، كما بدأت جريدة «جمهوريت» في نشر دراسة ليونس نادي (Yunus Nadi) (1879-1945م) [2]عن الغازي مصطفى كمال.[3]

ومن جانب آخر، استطاع كمال أن يكرس صورة الشخصية القدسية من خلال خطبه التي كانت تذاع لمرات عديدة، ومنها على الخصوص خطاب «نطق،» الذي أذيع لمدة ستة أيام[4] والذي يعتبر في حد ذاته حدثا غير عادي في التاريخ المعاصر لتركيا.[5] فقد شكل هذا الخطاب أساسا لتكريس شخصية مصطفى كمال كرمز من رموز التاريخ التركي، حيث أذيع لمرات عديدة، وتناولته الصحافة التركية بالتحليل، وخلد من خلال أخذ مقتطفات منه لتسجل

(1) نشرت في ثلاثين حلقة حيث توقفت الجريدة عن نشرها في 12 أبريل 1926م، وقد حظيت هذه المذكرات باهتمام جان دوني وترجمها إلى اللغة الفرنسية سنة بعد ذلك ينظر:
Jean Deny, *Souvenirs du Ghazi Mustapha Kemal Pacha (*Paris : Edité par Libr. Orientale de Paul Geuthner, 1927).

(2) كان من الصحفيين القلائل الذين غطوا حرب الاستقلال على صفحات جريدة «يكي كون» (Yeni Gün) التي أسسها سنة 1919م، وبالتالي أصبح من المقربين للزعيم مصطفى كمال، وكان من المدافعين الشرسين على الأطروحة الكمالية، وقد عهد إليه مصطفى كمال بتأسيس أداتين إعلاميتين لتأطير الرأي العام، والوقوف في وجه الهجمات التي شنها المحافظون في البداية على النظام الجمهوري، وهاتان الأداتان هما وكالة أنباء الأناضول وجريد «جمهوريت» (Cumhurıyyet) (1924م) الذائعة الصيت إلى يومنا هذا. وعلى صفحات هذه الأخيرة نشر هذه الدراسة عبر سلسلة من الحلقات عن الغازي.
ينظر:

(3)Mehmet Emin Elmaci, *Mustafa Kemal Ataturk ve Yunus Nadi* (Ankara: Cumhuriyet Kitaplari, 2021), 114.

(4) الخطاب الذي ألقاه مصطفى كمال خلال الفترة الممتدة ما بين 15 و 20 أكتوبر 1927م في المؤتمر الثاني لحزب الشعب الجمهوري، واستغرق 36 ساعة، نشر بعد ذلك في كتاب بعنوان «نطق.» وتضمن هذا الخطاب الطويل عرضا للمراحل التي قطعتها تركيا بدءا من حرب الاستقلال سنة 1919م إلى تاريخ تأسيس الجمهورية التركية في 29 أكتوبر 1923م. ويعتبر «نطق» مادة أساسية لدراسة تاريخ تأسيس الجمهورية التركية، لأنه يتضمن عددا من المبادئ التي حاول مصطفى كمال ترسيخها في المجتمع التركي مثل الديموقراطية وسيادة الأمة والعلمانية، كما يحفل هذا الخطاب بالعديد من الأساطير المؤسسة للجمهورية التركية والتي أصبحت على طرف كل لسان. ترجم كتاب نطق إلى عدة لغات لاسيما الفرنسية والإنجليزية والروسية (بشكل جزئي)، ونشر لمرات عديدة باللغة التركية. ويعد هذا الكتاب أداة أساسية لدراسة الكمالية.

(5) Vladimir Bogor, «Les mystères du Nutuk (Note de recherche),». In: *Cahiers d'Études sur la Méditerranée Orientale et le monde Turco-Iranien (CEMOTI),* Varia, n°4 (1987) :55-58.

في الحجرات الدراسية في المدارس والجامعات وفي مختلف إدارات الدولة وفي الساحات العمومية.... والحاصل أن هذه الصورة التي تكونت عن أتاتورك قرنت بين ثلاثة لحظات أساسية في سيرة هذا القائد: لحظة التحرير ولحظة تأسيس الجمهورية والقطع مع الماضي العثماني ولحظة رئيس للجمهورية لمدة تناهز خمس عشرة سنة. وكان الخطاب قد كرس بالأساس للحظة التحرير من خلال استعراض تفاصيل حرب التحرير من سنة 1919م إلى سنة 1923م، والدور الذي لعبته شخصية مصطفى كمال في هذه الحرب في أفق ترسيخ صورة «بطل التحرير.» وصاحب ترسيخ هذه الصورة إعلان 19 مايو 1919م[1] عيدا وطنيا، وصارت تركيا تحتفل به منذ سنة 1938م[2] وإلى اليوم. وهو اليوم الذي وصل فيه مصطفى كمال إلى سامسون في البحر الأسود ليعلن انطلاق حرب التحرير.

وفي سنة 1935م جرى تكريس صورة مصطفى كمال كأب للأتراك، واتخذ لقب أتاتورك، وبدا الأمر في البداية على أنه يدخل في إطار إصلاح الحالة المدنية (1934م)، إذ يقضي بضرورة تسجيل الأتراك بلقب، إلا أنه تجاوز مسألة الإصلاح العادي إلى السعي لتكريس نوع من «الأبوية،»[3] وهي كما يعرفها ماكس فيبر: «وصف للنظام الشخصي الذي يقوم فيه الحاكم بتوزيع المنافع على الأتباع مقابل ولائهم للشخص، وينظر الحاكم إلى المناصب السياسية باعتبارها إقطاعا يستخدمه لكسب التأييد.» ويتحدث فيبر أيضا عن الدولة الأبوية ويحدد خصائصها في خمس خصائص تتمثل في الحكم الفردي، وغياب الفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة، وتوزيع المناصب على أساس المحسوبية، وعمل النظام بشكل يستند إلى الشبكات العلائقية بين التابع والمتبوع، وممارسة السلطة لخدمة الحكام والمسؤولين. والاستناد إلى هذه الخصائص يعني الرفض القوي للقانون الوضعي الذي كرسته الثورة، والذي ينادي

(1) أصبح تاريخ 19 مايو أيضا هو تاريخ ولادة مصطفى كمال الذي لم يكن معروفا، وأصبح هذا التاريخ هو عيد مسيرة الشباب (Genç MarŞı)، فعيد الشباب هو عيد ميلاد الزعيم في الوقت نفسه.

(2) بموجب قانون رقم 3466 بتاريخ 20 يونيو 1938م.

(3) استخدم مصطلح الأبوية لأول مرة في اللغة الإنجليزية في شيكاغو تايمز في 11 يونيو 1881م. أما في اللغة الفرنسية فيبدو أنه من الصعب تحديد بداية استخدامه. ويرى العديد من الباحثين أنه مان معروفا بشكل ضمني في الثقافتين الرومانية والإغريقية بمسميات مختلفة، كما يرى هؤلاء الباحثون أن أساس السلطة يتمثل في تلك العلاقة التي تربط الحامي بالمحمي، أي أن أصل كل سلطة هو السلطة الأبوية. ومن ثمة، وجدنا ألقاب لبعض الزعماء منذ القرن الثالث عشر تحيل على هذا النوع من العلاقة، مثلما هو الأمر بالنسبة للويس الثاني عشر الذي كان يلقب بأبي الشعب (Le père du peuple)، أو مثلما هو الأمر بالنسبة لقيصر روسيا الذي كان يلقب بـ«الأب الصغير» أو كليمنصو الذي كان يلقب بأبي النصر.

ينظر:

François de Bry, «Le paternalisme entrepreneurial, égoïsme éclairé ou altruisme rationnel ?,» in *Altruisme* (1998) : 161-18.

بالمساواة القانونية بين المواطنين، كما يعني السعي إلى إعادة ترسيخ تنظيم المسؤوليات الفردية في القوانين الطبيعية.»[1]

لم تنته صورة كمال كأب للأتراك برحيله سنة 1938م، بل استمرت حاضرة لعدة أجيال ولا تزال صامدة أمام المحاولات الرامية إلى اجتثاثها.[2] لقد ترك كمال – كما يقول حميد بوز أرسلان- «كتابا خالدا» و«مدونة حديث» مقدسين، كانا بمنزلة «الوصية»[3] التي تجري العودة إليها لشرعنة السياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويعود الفضل في ذلك على المدى المنظور إلى طبيعة النظام الذي كرسه عصمت إينونو (1938- 1950م)، خليفة كمال،[4] من حيث تقديس الشخص، إذ كانت صورة أتاتورك في كل مكان في قاعات الدرس في المدارس والجامعات وفي المكاتب الإدارية في القطاعين الخاص والعام وفي الأوراق النقدية وفي بعض البيوت، كما يعود تقديس شخصية أتاتورك على المدى البعيد كذلك إلى ثلاثة عوامل وهي:

أولا: الدور الذي لعبته الكتب المدرسية. لقد جعلت هذه الكتب من أتاتورك كموحد للأتراك وما كان مجرد ظرفي في الثلاثينيات أصبح غائيا، وظل أتاتورك حيا، ويكفينا أن نضرب مثالا واحدا بالدرس المخصص للحرب العالمية الثانية في الكتاب المدرسي، والذي جرت معالجته بشكل متسرع مع التوقف مطولا عند تقديم وجهات نظر كمال في الوضع العالمي عشية الحرب العالمية الثانية.

ثانيا: الدور الذي لعبته المؤسسة العسكرية في صيانة هذه الصورة، باعتبار الجيش هو حامي الجمهورية والعلمانية ورموزهما، ومصطفى كمال يعتبر الرمز الأساس.

ثالثا: الدور الذي لعبته مؤسسة التاريخ التركي، التي أنشأها كمال نفسه، في مقاومة نسيان مصطفى كمال عبر تنظيم لقاء سنوي يخلد ذكراه. فقد كانت مجلة بالتان (Belleten) التي تصدرها هذه المؤسسة بشكل دوري تخصص ملفات لاستحضار ذكراه بين الفينة والأخرى. وإلى جانب ذك تجند العديد من المؤرخين لتلميع صورة مصطفى كمال أتاتورك، وأبقوه حيا في ذاكرة الأتراك. ومن هؤلاء مثلا أنور ضياء قرال (Enver Ziya Karal) الذي خصص العديد من الأبحاث لشخصية مصطفى كمال.[5]

---

(1) Thierry Hommel, «Paternalisme,» in Nicolas Postel- Richard Sobel, *Dictionnaire critique de la RSE* (Villeneuve d'Ascq: Presse Universitaire Septentrion 2016), 356-360.

(2) اعتاد الأتراك على كتابة تاريخ ولادته وتاريخ وفاته على الشكل التالي 1881- ∞193 (ثمانية بشكل مسطح التي تحيل على اللانهاية) بمعنى أن كمال سيظل حيا في ذاكرة الأتراك.

(3) حميد بوزرسلان، **تاريخ تركيا المعاصر**، 65-66.

(4) هو نفسه كان يشتغل على عبادة شخصيته، حيث كان يحب أن يلقب بـ «الرجل الثاني» (Ikinci Adam) وأيضا بـ «الزعيم الوطني» (Milli Şef).

(5) بنحادة، **إستوغرافيات**، 352

• محمد الفاتح رمز الإحياء العثماني الأول

فتحت التعددية السياسية التي عرفتها تركيا عقب وفاة مصطفى كمال عهدا جديدا في التعامل مع الماضي العثماني حيث يقف المتتبع عند تزايد عدد المنشورات المتعلقة بالتاريخ العثماني منذ نهاية الثلاثينات من القرن الماضي، كما يلاحظ حماسا جديدا للاحتفالات بإنجازات العصر الذهبي للدولة العثمانية في مد يسعى إلى تجاوز ما ألحق بها من تبخيس وإدانة إخفاقاتها اللاحقة. وتزامن هذا التحول مع وفاة مصطفى كمال أتاتورك، ويعطي الانطباع على أن الموقف من الدولة العثمانية حددته المواقف الشخصية لأتاتورك. ولكن هناك مسألة على جانب كبير من الأهمية ينبغي التنبيه إليها، وهي أن الجمهوريين أصبحوا، مع مرور الزمن، واثقين من ديمومة ثورتهم،[1] وترسخ التحول الذي عملوا على تحقيقه في تركيا، ولم يعد هناك أي سبب للخوف من عودة العثمانيين إلى دفة الحكم، لا سيما بعد لجوء عدد منهم، وعلى رأسهم أفراد الأسرة السلطانية إلى فرنسا. لقد كان بعض الأتراك يتخوفون من إمكانية دعم أوروبا لبقايا العثمانيين، وهو اعتقاد غذته ضبابية الموقف الأوروبي من الجمهورية الجديدة في السنوات الأولى.

وبعد أن بذل الجمهوريون جهدا كبيرا في محو آثار الذاكرة العثمانية، عادوا بفعل التحولات السياسية والاجتماعية إلى استعمال رموز الماضي العثماني، والتصالح معها وفق التوجهات السياسية الجديدة. ولنقف إذن عند واحد من أوجه هذا التصالح، ويتعلق الأمر باحتفالات الذكرى المئوية الخامسة لفتح القسطنطينية.

استنادا إلى هذه الخلفية، بدأ عصمت إينونو (1884-1973م)، الذي تولى رئاسة الجمهورية التركية من سنة 1938م إلى سنة 1950م، الاستعدادات للاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لفتح القسطنطينية من قبل جيوش محمد الفاتح سنة 1453م. وأثناء هذه الاستعدادات، رفعت شعارات، وترددت عبارات تشي بتحول كبير في النظرة إلى الماضي العثماني والرغبة في استعماله. لم يعد الماضي العثماني منبوذا، ونُظر إلى الفتح العثماني للقسطنطينية على أنه انتصار لقيم العلمانية وللأمة التركية، وجرى الاحتفال بالطريقة التي تخلد بها الأحداث الكبرى في أوروبا.

وفي مايو 1953م، افتتحت الاحتفالات التي استغرق التحضير لها وقتا طويلا.[2] ومن بين فقرات الاحتفالات هذه استضافة جامعة إستانبول لمحاضرات ومؤتمرات ناقش فيها

(1) Nick Danforth, «The Ottoman Empire from 1923 to Today: In Search of Usable Past,» in *Mediterranean Quarterly*, Vol.27(2016): 5-27.

(2) Cağla Derya Tağmat, Fatıh Derneği ve Istanbul Fethinin 500 Yılı, in *Journal of Hıstory, culture and Art research,* 3 (4), 46(May 2015): 46-60.

الطلاب والأساتذة وعدد من الضيوف، إنجازات محمد الفاتح،[1] كما تميزت هذه الفعاليات بعرض مسرحيات تخلد الحدث، وأقيم معرض خاص بمتعلقات السلطان محمد الفاتح، وآخر للمنسوجات العثمانية التي تعود إلى القرن الخامس عشر للميلاد. ولم يكن الاحتفال ثقافيا فحسب، بل كان أيضا احتفالا سياسيا، إذ سار الجيش التركي إلى قبر الفاتح وسط العاصمة العثمانية، وتليت الفاتحة على روح الفاتح، ونقل هذا الاحتفال السياسي مباشرة على أمواج الإذاعة الحكومية التركية. ولم تقتصر هذه الاحتفالات على الداخل التركي، بل نظمت احتفالات في كبريات المدن العالمية كنيويورك ولندن. والمؤكد أن تنظيم احتفالات بهذا الحدث خارج تركيا، له دلالته من الناحية السياسية.

لقد أكدت مجريات الفعاليات على الهوية الوطنية التركية لمحمد الفاتح و «علمانيته،» ولم يكن الفاتح بالنسبة للمشرفين على الاحتفالات إمبراطورا عثمانيا، بل «الحاكم التركي العظيم في «إمبراطورية تركية عظيمة.» لقد قدم أعظم هدية للأمة التركية فاتحا القسطنطينية. وربط الإعلاميون والسياسيون بين الفاتح والدولة التركية الحديثة، كما ربطوا بين انتصاره وكفاح تركيا المستمر من أجل الحفاظ على سيادتها الوطنية في مواجهة المطالب الإقليمية الروسية. ومن بين الشعارات التي رفعت أثناء هذه الاحتفالات، «إستانبول كانت تركية منذ 500 سنة وستبقى تركية لمدة 500 سنة أخرى،» وأن «محمد الفاتح لم يكن سلطانا مسلما منتصرا للدين الإسلامي بل قائدا علمانيا، لقد وضع هذا «السلطان العلماني» حدا للعصور الوسطى التي غلبت عليها «الأصولية» و«الصراع الطائفي،» وكان له الدور الفعال في عودة الغرب إلى صوابه، وأطلق العنان للفكر الحر، وجعل من إستانبول مركزا علميا أسهم في تجديد الفن والثقافة التركيتين، وتجاهل الوصاية الدينية على البشر. وباختصار شديد نظر إلى الفاتح كمدشن لـ «حقبة جديدة» من تاريخ البشرية، وأصبح يزاحم مصطفى كمال أتاتورك، إلى درجة أن أحد الصحفيين اقترح أن تعلق صورة الفاتح إلى جانب صورة مصطفى كمال في المكاتب والبيوت، لأنهما قدما «خدمة كبيرة للأمة التركية.»[2]

واستحضر الأتراك لتبرير المصالحة مع ماضيهم، ولتقديم هذا السلطان بصورة الفاتح المسلم، مسألة تعامله مع آيا صوفيا التي حافظ عليها كما هي من الناحية المعمارية والفنية، وحولها إلى مسجد جامع، ولم يقدم على تدمير ما احتوته من رسوم. وعند التحضير لتحويل آيا

(1) خصصت الصحافة التركية عدة مقالات لنقل ما جرى في فعاليات الاحتفالات وتابعتها يوميا. ينظر مثلا التغطية الإعلامية لبعض الفعاليات في جريدة مليت وجمهوريت. ينظر
«Fetih yılı programi,» in *Milliyet*, 21 May 1953.
Ferdi Öner, «Fethin 500 uncu yıldönümü Tören ve Şenlikleri başladi,» in *Cumhurriyet*, 30 May1953 .
(2) Danforth, «The Ottoman,» 19.

صوفيا إلى متحف في بداية العهد الجمهوري، وأثناء إجراء بعض الترميمات، اكتشف الأتراك أن محمد الفاتح لم يدمر الفسيفساء البيزنطية بذريعة تحريم التجسيد والصور التشخيصية في الديانة الإسلامية، بل اكتفى بتغطيتها بقماش متين، ووضع طبقات رقيقة من الجص، وعندما أزيلت طبقة الجص الرقيقة وأغطية القماش ظهرت الفسيفساء بالصورة التي كانت عليها قبل سنة 1453م، لتؤكد طابع التسامح الذي سعى الجمهوريون الأتراك إلى الترويج له وترسيخه على المستوى الدولي، ردا على ما اعتبرته الصحافة التركية آنذاك تطاولا على العنصر التركي.

وقد استمر الفاتح رمزا من رموز الهوية التركية، وجرى استغلاله سياسيا عندما أصبحت الاحتفالات التركية بفتح القسطنطينية حكرا على حزب العدالة والتنمية، وأصبح 29 مايو يوما احتفاليا يستغل لتقديم حصيلة الحزب، وشحذ الهمم من أجل مواصلة مشروع الإسلام السياسي في تركيا.

• السلطان المظلوم أو ذكرى وفاة سلطان معزول: عبد الحميد الثاني

ومثلما كان استحضار شخصية محمد الفاتح في العقد الخامس من القرن العشرين، توجهت تركيا العدالة والتنمية إلى رمز آخر من رموز التاريخ العثماني الذي ينسجم مع التوجهات السياسية التركية، ويتعلق الأمر بالسلطان عبد الحميد الثاني (1876- 1908م) الذي تعرض للاستخفاف من قبل الكماليين، ولمزيد من البيان في هذا الشأن ، نستعرض ما يلي:

أولا: المكانة التي أصبح يحتلها قصر يلدز الذي تحول إلى مقر إقامة الرئيس التركي الطيب رجب إردوغان بعدما كان جناح منه مخصص لمقر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا) التابع لمنظمة التعاون الإسلامي من سنة تأسيسه سنة 1986م إلى سنة 2018م. ويحمل تحويل القصر مقرا لإقامة إردوغان رمزية بالغة الدلالة تحيل على الانتماء الإسلامي لتركيا، ويرمز أيضا إلى قيادة تركيا للعالم الإسلامي. وقد جرى استقبال إردوغان لعدد من وفود البلدان الإسلامية في هذا القصر. كما أنه يرمز على المستوى المحلي إلى استعادة الماضي العثماني وتمجيده بعد أن كان أحد أجنحة القصر قد تحول إلى نادي للقمار في سنة 1926م، أي عقب الثورة الكمالية.[1]

(1) حظي «غازينو يلدز» باهتمام كبير، وتجلى هذا الاهتمام في إصدار كتيب سنة 1926م يتعرض لهذه المعلمة الفريدة من نوعها في التاريخ التركي. وقد صدر هذا الكتيب عن شركة مجهولة الاسم تدير هذه المنشأة، ويحمل عنوان: **«يلدز استانبول بلديه غازينوسي: يلدز سرايى إيله بارقنك تارخجهسي يكي غازينو مؤسسه سى»** (يلدز: كازينو بلدية استانبول، تاريخ قصر يلدز وحديقته: مؤسسة الكازينو الجديدة). كما نشرت مطبعة أحمد إحسان في إستانبول كتابا خصص لهذه المنشأة باللغة الإنجليزية بعنوان:
Yildiz, the Municipal Casino of Constantinople: The Historical Past of the Palace and Park of Yildiz (Istanbul: Yıldız Parkı,1926).

ثانيا: الاحتفالات بمئوية رحيل السلطان عبد الحميد الثاني سنة 2018م. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن هذه الاحتفالات تزامنت مع الاحتفالات بذكرى مرور 80 عاما على وفاة مصطفى كمال أتاتورك، وهو ما يوشي بصراع مرير لذاكرتين اثنتين.

أعاد القيمون على هذه الاحتفالية الاعتبار لهذه الشخصية التي ظلمت زمن الوطنيين الأتراك وزمن الجمهورية، وكانوا يريدون بذلك تمرير رسالة معينة. ولا بد أن نشير في هذا الباب إلى أن هذه الاحتفالات كانت بمناسبة مرور مائة سنة على وفاة عبد الحميد الذي استمر في مزاولة مهامه كسلطان، بل توفي مخلوعا بعد مرور ما يناهز عقدا من الزمان.[1]

فقد دعي للحفل أفراد السلالة العثمانية، ممن هجر آباؤهم وأجدادهم تركيا في السنوات الأولى من الجمهورية غداه إعلان موت الخلافة، وانتشروا في ثلاث قارات وسبع دول مختلفة. وشارك في هذا الحفل 28 من أحفاد السلطان عبد الحميد، وأقيم في 9 فبراير عشية الذكرى المئوية لوفاة السلطان في الفضاء الجميل لمالطا كشك (Malta köşk) (جناح مالطة) الذي أعطيت منه تعليمات سلطانية بالغة الدلالة طيلة فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

كانت الكلمة التي ألقتها السيدة فاطمة كنج أوناي (Fatma Genç Ünay)، عضو اللجنة الوطنية التابعة للاتحاد الأوروبي وعضو مجلس بلدية إستانبول، بالغة الدلالة، وهي تتكلم بتكليف من الرئيس التركي، فقد أكدت على أهمية إرث عبد الحميد قائلة: «إن الأمة التركية فخورة بكم وبماضيها العثماني. إن أفراد الأسرة العثمانية وذريتهم جزء من تراثنا الوطني. نعلم أن أفراد السلالة العثمانية عاشوا أوقاتًا صعبة بالمنفى في الماضي، لكن في السنوات الأخيرة بدأت بلادنا في إعادة اكتشاف ماضيها العثماني المجيد، وإعادة التراث العثماني إلى المكان الذي يستحقه. نحن فخورون بماضينا العثماني وبأننا كنا مؤسسين لواحدة من أكثر الحضارات الإنسانية تقدمًا في التاريخ.» وبصدد السلطان عبد الحميد قالت المسؤولة التركية. «كان السلطان عبد الحميد صاحب رؤية وقائدًا عظيمًا يتمتع بمهارات سياسية قوية، ولكنه أيضًا كان مخلصًا للعلوم والتكنولوجيا والفنون. يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني آخر سلطان وخليفة الإمبراطورية العثمانية. لقد حكم الإمبراطورية لمدة 33 عامًا خلال أصعب الأوقات

(1) نعتقد أن هذا الأمر يستحق وحده وقفة متأنية، فكأن الاحتفال بمرور مائة سنة على وفاة هذا السلطان هو استدراك لمراسيم الجنازة التي تقام عادة للذين توفوا من السلاطين وهم على عروشهم. ينظر:
Burak Onaran, «La mort du sultan détrôné (1622-1918) Un survol à travers l'histoire politique de l'Empire ottoman,» in *La mort des princes de l'antiquité à nos jours*, Ed. Jérémie Foa, Élisabeth Malamut et Charles Zaremba, Temps de l'histoire (axe Marseille : presses universitaires de provence, 2016), 161-177.

قبل تفككها النهائي في بداية القرن الماضي. يمكننا أن نعتبر أن له دور بارز في تأخير تفكك الإمبراطورية بفضل قيادته وصفاته كرجل دولة. نحتفل اليوم بذكرى وفاة هذه الشخصية التاريخية العظيمة.» وهكذا وظفت كنج كل ما قام به عبدالحميد خلال فترة حكمه، وما أدانه الوطنيون من خلال الانقلاب عليه، إلى منجزات أسهمت حسب رأيها، وهي تتكلم باسم الرئيس، في تحديث تركيا والقيام بما يسهم «في الحفاظ على الهوية الإسلامية للدولة العثمانية ودعم المسلمين في جميع أنحاء العالم من إفريقيا إلى الصين. فقد نجح في مقاومة الاستعمار الأوروبي التوسعي، واحتفظ بمكانة الإمبراطورية كقوة عالمية.»[1]

لعل أهم ما ورد في هذه الاحتفالية هو العزم من قبل الدولة التركية على بذل «قصارى الجهد لضمان إحياء ذكرى السلطان عبد الحميد كما ينبغي، كسلطان عظيم وزعيم ورجل دولة، وليس كـ «السلطان الأحمر،» وهي صورة خاطئة رسمتها القوى الغربية وحلفاؤها في تركيا. كما أن كل شيء عن عبد الحميد له قيمة كبيرة بالنسبة لنا، بما في ذلك عائلته وذريته.» وتؤكد الاحتفالية على أن التعرف على شخصية السلطان عبد الحميد هي المفتاح ليس لفهم الماضي فحسب، ولكن لفهم الحاضر أيضا، «كما قال الشاعر نجيب فاضل (1904-1983م)،» «ستؤثر رؤى السلطان العميقة على رؤيتنا اليوم في ظل المشاكل التي تواجه بلدنا ومنطقتنا والعالم أجمع.»

ثالثا: تكريس دراسات كثيرة للسلطان عبد الحميد الثاني. نعتقد أن هذه الاحتفالية بهذا السلطان جاءت لتتوج الجهود التي بذلت من أجل تلميع صورته على المستوى الأكاديمي، فقد خصص له الباحثون من ذوي التوجه الإسلامي، والعديد من المؤسسات، ولاسيما مؤسسة الأرشيف العثماني والموسوعة الإسلامية، العديد من الدراسات والأبحاث. وقد سعت هذه الأبحاث إلى إحداث نوع من التوازن (Contre Balance) على مستوى خريطة البحث التركي. ففي الوقت الذي انبرى فيه العلمانيون إلى إلقاء أضواء على التنظيمات باعتبارها أساس التحديث في تركيا، وقصروا أهم الإصلاحات التي أجراها عبد الحميد على الجانب العسكري،[2] متجاهلين الإصلاحات التي بادر إليها على المستوى الاقتصادي والتعليمي، كان الإسلاميون يرون أنه جاء ليوقف خطر هذه الإصلاحات على الدولة وعلى الهوية التركية العثمانية، فعملوا من أجل الكشف على بقية الإصلاحات الأخرى التي قام بها هذا السلطان.

(1) Istanbul accueille les descendants du sultan Abdülhamid II la veille de l'anniversaire de sa mort , in https://www.aa.com.tr/fr/turquie , 123, 13 Février 2018 (20 Aout 2022).

(2) سمية الوحيشي، التوظيف الإيديولوجي لشخصية السلطان عبدالحميد الثاني في كتابة النص التاريخي التركي المعاصر، في **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، السنة الثلاثون، العددان 59-60 (نوفمبر/تشرين الثاني 2019): 595-652.

لقد حاولت السردية الجديدة عن السلطان عبد الحميد الثاني أن تعيد له الاعتبار، ورأت أنه كان ضحية لمخططات سياسية وإيديولوجية، بدأت مع الشبان الأتراك الذي انقلبوا عليه، وتواصلت مع الجمهورية التي عملت على إقبار الفترة العثمانية ككل، وكان التوجه الذي سلكه السلطان عبدالحميد فيما يتعلق بإحياء الخلافة عاملا أساسيا في أن يكون الشخص الذي وجهت إليه سهام الجمهورية. ولكن لماذا الاهتمام بعبد الحميد الثاني؟

يرى الرئيس التركي الطيب رجب إردوغان أن هناك قواسم مشتركة بينه وبين عبد الحميد الثاني، ويروج لهذه القواسم عبر كثير من المنصات، من مؤتمرات ومحاضرات يلقيها بعض مقربيه أو من ينتمون إلى دوائر ثقافية تحلق بفلكه، ومن هذه القواسم المشتركة كما يصوروها، الهجمة التي تعرضا لها من الغرب الأوروبي بسبب أن ما قاما به من إصلاحات يشكل مصدر إزعاج لأوروبا،[1] التي باتت تضايقهما من خلال الترويج لادعاءات كاذبة على شخصيتيهما «السلطان الأحمر،» وهي الصفة اللصيقة بالسلطان عبدالحميد و«السلطوية والتحكم بالنسبة لطيب رجب أردوغان.» ولم تتوقف أوروبا عند الترويج للادعاءات الكاذبة، بل تآمرت على الرجلين من خلال دعم الانقلاب على الأول وعزله سنة 1908م، ومحاولة الانقلاب على الثاني سنة 2016م.

ويحاول من كتب عن عبد الحميد من هؤلاء أيضا أن يبرز أن المثقفين «العلمانيين» لم يحسنوا لعب الأدوار المنوطة بهم لدعم المبادرات الرامية إلى رفع التحديات، ومثلما تخاذلوا على السلطان عبر الترويج للقيم الغربية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يعملون الآن على تشويه صورة إردوغان عن طريق تبني الشعارات الحقوقية، وكأنهم لم يستوعبوا دروس الماضي.

• إردوغان: إمام المسلمين ووالد الأتراك الجدد

كان استحضار شخصية السلطان عبد الحميد كرمز، موجه برمزية أخرى وبترسيخ كاريزما إردوغان، كقائد سياسي، وقد وضع نصب عينيه شخصية مصطفى كمال أتاتورك، وعمل على احتلال موقع هذا الأخير عبر شن ما يمكن أن يسمى بحروب الذاكرة التي كان استحضار الشخصيات العثمانية الإسلامية أحد فصولها. وبهذا أراد إردوغان أن يتحول إلى أب للأتراك، على غرار ما قام به كمال.

(1) Hakan Yavuz, *Nostalgia for the Empire: The Politics of Neo-Ottomanism*, Published by university of Oxford, 2020, https://doi.org/10.1093/oso/9780197512289.001.0001.

وقد عمل إردوغان على هدم الصورة التي تكونت لدى الأتراك عن مصطفى كمال عبر السنين وبدا هذا الأمر في عدة أمور:

على مستوى الذاكرة، أعطيت أهمية كبيرة لحدث 29 مايو على حساب 19 مايو، حيث أولى طيب رجب إردوغان أهمية كبيرة للحدث الأول من خلال الحضور فيه، وإلقاء خطب طويله في التجمعات يقدم فيها حصيلة الحزب، وجعل من هذه المناسبة وسيلة لحشد مزيد من المتعاطفين مع الحزب. أما حدث 19 مايو، الذي يعتبر ذكرى انطلاق حرب الاستقلال، وفي نفس الوقت ذكرى ميلاد مصطفى كمال أتاتورك، فقد تحول إلى مجرد احتفال عادي، وتخلو خطب إردوغان بمناسبة الاحتفال بهذه الذكرى من عبارات التمجيد التي بصمت خطب الرؤساء السابقين، إذ تخاطب المستقبل وتخاطب الشباب وتكتفي بتوجيه التحية إلى أتاتورك.

وعندما كانت الأحزاب العلمانية التركية تريد أن تصنع من الاحتفالات بالذكرى الثمانين لوفاة كمال أتاتورك الحدث في سنة 2018م، جاء إردوغان بذكرى منافسة وهي ذكرى مئوية وفاة عبد الحميد، وأعطى الرئيس التركي أهمية كبيرة للذكرى الثانية فيما اكتفى بزيارة قبر مصطفى كمال في أنقره، وكتب في الدفتر الذهبي للضريح نصا يدل على المسافة التي يضعها بينه وبين كمال أتاتورك ورد فيه ما يلي:

«أيها الأتاتورك العزيز والقائد الأول لحرب الاستقلال ومؤسس الجمهورية التركية، نذكركم في الذكرى السنوية الثمانين لوفاتكم. ونحن نسير بعزم وإقدام في طريق جعل الجمهورية التركية التي توارثناها أمانة منكم وشهدائنا، في مصاف الدول الكبرى قوة ورفاهية رغم هجمات أعداء الداخل والخارج. ونُقش مطار إسطنبول الذي افتتحناه في الذكرى التأسيسية الخامسة والتسعين لتأسيس جمهوريتنا. عاشت روحك في هناء.»[1]

يقف قارئ هذا النص على برودة إردوغان في التعامل مع شخص أتاتورك، فهو لا يستحضر مناقب الرجل على الشاكلة التي نجدها في الشهادات الأخرى، بل يذكر روح كمال بالتوجه نحو المستقبل ومواصلة البناء الذي بدأه أتاتورك. وفي نفس الوقت يذكره أيضا بافتتاح مطار جديد في إستانبول، وهي المنشأة التي تضع حدا للصيت الدولي لكمال عن طريق التخلي عن المطار الذي يحمل اسمه. وهو حلقة أخرى من مسلسل صراع الذاكرات، الذي كانت أحد فصوله عندما هم إردوغان ببناء واحد من أكبر المساجد في إستانبول مقابلا للمركز الثقافي الذي يحمل اسم أتاتورك الذي توقف عن احتضان تظاهرات ثقافية كبيرة عرفت باحتجاجات كيزي بارك (Gezi Park).[2]

(1) https://www.internethaber.com/ataturk-vefatinin-80yilinda-anildi-iste-erdoganin-mesaji-1917889h.htm (22 septembre 2022).

(2) تدل احتجاجات كيزي بارك على إحدى أهم اللحظات في التاريخ والسياسة التركية المعاصرة. باستخدام أداة الاعتصامات والاستيلاء على «الأماكن العامة» (Public Space) التي روجت لها حركة (global Occupy) الغاضبة في

ويمكن القول إن كاريزما إردوغان بناها على مرحلتين:

المرحلة الأولى، وتتمثل فيما حققه من إنجازات اقتصادية واجتماعية منذ أن كان رئيسا لبلدية إستانبول الكبيرة.

المرحلة الثانية، وهي التي تلت انقلاب شهر تموز 2016م، واستند فيها على ما يمكن أن نسميه بالكريزما التقليدية القائمة على أساس الجاذبية المؤسسة على الخطابات الشعبوية والعزف على أوتار العواطف والمشاعر.

فهل استطاع إردوغان أن يتحول إلى رمز على غرار ما تحقق لسليمان وجينكزخان ومحمد الفاتح ومصطفى كمال؟

نعم ولا. نعم لأنه استطاع أن يكسب ثقة الملايين من الأتراك عبر صناديق الاقتراع، وأن يجعل عددا كبيرا من المثقفين يكتبون عنه ممجدين أو منتقدين، كما استطاع أن يجد مكانا له في الساحة الثقافية إن على المستوى المحلي أو على المستوي الإقليمي أو الدولي. ولا، لأن السياق الذي أفرز الشخصيات الرمزية لم يعد هو السياق نفسه، كما لم يعد هناك مكان للأبوية، بل إن ما يراكمه المسؤول السياسي من إنجازات يقتضي الاستمرارية، وفي حالة عدم قدرته على مراكمة المنجزات فإن ذلك يفقده تعاطف ناخبيه. وبناء عليه، فإن المزاوجة بين الديموقراطية والأبوية يعتبر أمرا مستحيلا.

إسبانيا وأثناء الربيع العربي. وقد سعى المواطنون الأتراك إلى تحدي خطط الحكومة لإعادة النظر في وظائف الحديقة الموجودة في ميدان تقسيم في وسط اسطنبول. في مايو ويونيو 2013 ، أصبح شعار «هذه مجرد البداية، الكفاح مستمر» شعارًا شائعًا تم ترديده في حديقة كيزي ردًا على سياسات الحكومة التي تنتهك الحريات المدنية للجنس والعرق والجماعات الدينية المختلفة، بغض النظر عن اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية. وقد بدأت الاحتجاجات في 27 مايو 2013م كاعتصام عندما بدأت الجرافات في قطع الأشجار في حديقة جيزي في اسطنبول لبناء مركز تجاري وترميم مبنى منسي منذ فترة طويلة دون الحصول على تصاريح التخطيط اللازمة. وفي 28 مايو 2013م، وقفت نائبة حزب السلام والديمقراطية، سوريا أوندر (Süreyya Önder)، أمام الجرافات. في 29 مايو، وعلى إثر ذلك قامت شرطة مكافحة الشغب بتفريق المتظاهرين بالعنف داخل الحديقة باستخدام خراطيم المياه والغاز المسيل للدموع.

Fatma Bostan-Ünsal, «Gezi Park Protests in Turkey: Transformation of a Local Protest into a National and International Crisis» in *Review of Middle East Studies*, Vol. 47, No. 1 (Summer 2013): 19-21.

- **خلاصات**

تأسيسا على ما سبق يمكننا تسجيل الخلاصات التالية:

أولا: إن استحضار الشخصيات التاريخية العثمانية التركية تعتبر ظاهرة لصيقة بالثقافة التركية، ولا يمكن أن نفهم هذا الاستحضار إلا بإحالته على سياقاته التاريخية. حيث يقدم هذا العرض المد والجزر الذين عرفتهما عملية العودة إلى توظيف شخصية السلاطين العثمانيين في التاريخ الحاضر، ويكشف عن أن التاريخ العثماني يظل أساسيا في بناء الهوية التركية المعاصرة، وأن مؤرخ تركيا مطالب بمزيد من النبش في هوية العثمانيين بالطريقة التي يناقش بها الأمريكيون هوية المؤسسين وأعينهم مسمرة على الحاضر.

ثانيا: إن استعمال التاريخ في الثقافة السياسية التركية كان دائما استعمالا مكثفا منذ القرن التاسع عشر على الأقل، واستحضاره من قبل السياسيين يعتبر عملية إيديولوجية صرفة، يجري فيها توظيف شخوص تاريخية ليس من أجل إعادة بناء الماضي ولكن من أجل تملك الحاضر وبناء المستقبل. وبمجرد أن يتخطى الملاحظ هذا الارتباط الانعكاسي بين الحنين العثماني والإسلام السياسي، سيكون أكثر قدرة على فهم كيف أن الماضي العثماني، مثله مثل كل التواريخ، هو ساحة للتنافس الرمزي بين جميع الأيديولوجيات-القومية والدينية والليبرالية- من أجل تملك الحاضر والسيطرة على مستقبل تركيا.

بيد أن المثير للانتباه في العملية كلها، ليس استحضار الشخصيات سياسيا ولكن تناولها أكاديميا، فهل هذا يعني أن ألأكاديمي مجند لخدمة السياسي؟ نعم هناك لحظات تتقلص فيها المسافات بين الأكاديمية والإيديولوجية في تركيا المعاصرة ويصبح من الصعب تمييز التاريخ عن الذاكرة. وعندما لا نستطيع التمييز بين الذاكرة والتاريخ نفهم جيدا سطوة الإيديولوجية.

ثالثا: إن كتابة التاريخ العثماني أصبحت اليوم تحت سطوة الإسلام السياسي في تركيا، ولابد من التأكيد على أن العملية لم تكن وليدة تحكم العدالة والتنمية في السلطة، ولكنها تعود إلى ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، ويبدو أن هذه الثقافة التركية كانت لا تعارض هذه السطوة، فقد التقى العلمانيون والإسلاميون في مسألة تقديس الشخصيات، ولم يكن ناظم حكمت، وهو الشيوعي المتمرد على التقاليد، يجد غضاضة في التفاخر بتحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد جامع من قبل محمد الفاتح. مثلما جرى استحضار السلطان سليمان في التخييل التركي في الآونة الأخيرة من قبل العلمانيين.